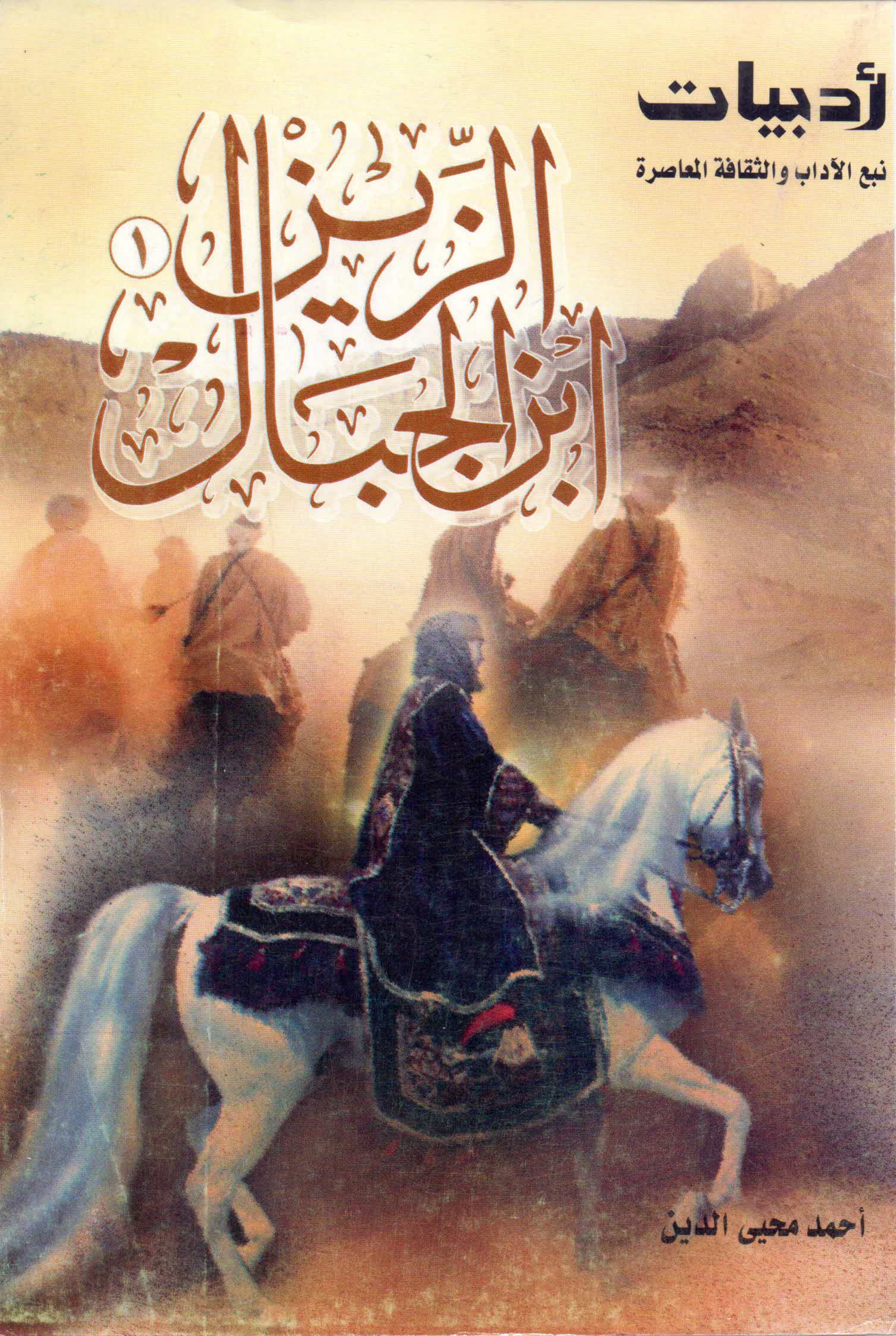

أدبيات
نبع الآداب والثقافة المعاصرة
الزين ابن الجبال
١
أحمد محيى الدين



نبع الآداب والثقافة المعاصرة





أحمد محيي الد

" ابحث لى عن الصبر فى بلاد الغيظ ، وعن الحق فى بلاد الظلم ، وعن الجوع فى بلاد الغِنى " .

قالها (الزين) فسأله الشيخ (عبدالحميد) مندهشًا :

- ماذا تقول يا (زين) ؟
- هذه أوامر الملك كى أتولى الحكم من بعده.
- الحكم !! هل ستكون الملك يا (زين) ؟
- هكذا أمرنى الملك يا شيخ ، ماذا أفعل ؟

همس الشيخ كأنما يحادث نفسه :

- ليس له وريث.
- لكن له وريثة.
- هو يود إعداد من يتولى مُلك البلاد من بعده ، أنت تعرف أن النساء لا تصلح لهذه الأمور.

أخذ الشيخ (عبدالحميد) يتفكر قليلاً ، و(الزين) جالس أمامه ينظر إليه حتى قال :

- أهذا فقط كل ما أخبرك به الملك ؟

المؤلف





أدبيات

•

نبع الآداب والثقافة المعاصرة

•

الزين ابن الجبال

(١)

أدبيات

●

نبع الآداب والثقافة المعاصرة

●

من : أدب ، وقصة ، ورواية ،
ودراسة ، وسير ، وبحوث ،
وفكر ، ونقد ، وشعر ،
وبلاغة ، وعلوم ، وتراث ،
ولغات ، وقضايا ، وتاريخ ،
واجتماع ، وعلم نفس ،
ورحلات ، وسياسة ، إلخ .

●

تحت إشراف ومراجعة

لجنة القراءات

بالمؤسسة العربية الحديثة

●

شعار السلسلة

نحن نخرج لك أحسن الكتب

●

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة ـ المطابع ٨ ، ١٠ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية ـ منافذ البيع ١٠ ، ١٦ شارع كامل صدقي الفجالة ـ ٤ شارع الإسحاقي : بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة ـ القاهرة ت : ٢٦٨٢٣٧٩٢ ـ ٢٥٩٠٨٤٥٥ ـ ٢٢٥٨٦١٩٧ ، فاكس : ٢٠٢/٢٥٩٦٦٥٠ ج.م.ع ـ
الإسكندرية ٤ شارع بدوي / محرم بك ـ ت : ٠٣/٤٩٧٠٨٤٠ ـ ٠٣/٤٩٧٠٨٥٠

أدبيات

•

نبع الآداب والثقافة المعاصرة

•

الزين ابن الجبال

الزين (١)

تأليف : أحمد محي الدين



مقـــــدمة

الشجاعة تميزه ..

والقوة لا تنقصه ..

والخبرة يسعى إليها ..

والصحبة الطيبة تلازمه ..

الزين هـــو شـــاب تبناه وعلمه الشجاعة وأخلاق الفرسان الشيخ (عبدالحميد التوحيدى) .. الفارس المخضرم ..

وتوسم الملك (شاكسير) ــ الذى ليس له ســوى (ســولى) ابنته الأميرة ــ فى (الزين) أن يصبح ملكًا للبلاد من بعده ..

فيقوم بتأهيله ليكون كذلك ..

يحـــكى له مـــن خبراته .. ويرسله عبر البـــلاد ليكتســـب خبـــرات خاصة به ..

(الزين) على استعداد لفعل كل شيء من أجل (سولى) الأميرة التى يحبها .. وتحبه ..

ومن أجل بلاده التى نشأ فيها ولا يعرف غيرها .

لا يسعى الزين ليكون ملكًا .. ولكنه سيكون ..

لا يسعى الزين لأن يكون أسطورة ..

ولكنه سيكون ..

يعلم (الزين) أنه لا أحد ينجز أشياء عظيمة فى الحياة بمفرده .. لذا فقد حباه الله بصديقه (علىّ) ، ومربيه الشيخ (عبدالحميد) ..

سيجوب (الزين) البلاد بحثًا عن الصبر فى بلاد الغيظ ..

وعن الحق فى بلاد الظلم ..

وعن الجوع فى بلاد الغنى ..

وسيواجه الخطر لأجل ذلك ..

أين سيواجه (الزين) الخطر ؟

ومن سيواجه من صنوف البشر ؟

هذا ما نجابهه مع الفارس فى سلسلة مغامراته كلها ..

المؤلـف

١ ـ علىّ التوحيدى ..

يسير بهدوء عبر سوق المدينة جواد يمتطيه (الزين) الذى جذبت مسامعه جلبة ، التفت فرأى فتاة وجاريتها يلملمان أشياء سقطت منهما ، وبائعًا مسنًّا يعتذر عن خطأ غير مقصـــود .. رمى بنظـــره على ما سقط فوجد برتقالات ، وبينما الجارية تطيّب خاطر البائع ، رفع بصره لوجه الفتاة .. ولمح حمرة خفيفة تزحف على وجنتيها عندما لاحظت وقوفه لمتابعتها دون المـــارين جميعًا .. كانت تنظر لعينيـــه فشعر بشيء يجتـــاحه للحظة ، لم يعـــرف كنهه .. وناداه شخص يهـــرول ناحيته لاهثًا يهمس بكلمات ، جذب بعدها (الزين) لجـــام جواده ، فرفع الحصان قدميه الأماميتين مطلقًا صهيلاً عاليًا ، انطلق بعده بصاحبه المطارَد بنظرات الفتاة .

* * *

ظهر (علىّ) مقبلاً على صهوة جواده الراكض يلوّح بسيفه ، وعلى جبينه تقطيب شارك مع عينيه فى صنع لوحة غضب بملامحه ، ثم وصل إلى بعض الرجال ذوى الملابس الخضراء الخشنة البدوية ، يبارزهم بسيفه .. فخرج عدد آخر بنفس الملابس من خلف الصخور القليلة المتناثرة فى الواحة ، كاد لهذا أن يزرع بذرة شك فى قدرته على الصمود أمامهم ، وخشى أن تكون نهايته سريعة على أيديهم ، لكن بينما هو يبارزهم متفاديًا أحدهم طاعنًا آخر ، تعالى إلى مسامع الجميع ضرب حوافر جواد تعلو من خلفهم ، وصوت من يمتطيه يصيح :

ــ لقد جئتُ يا (علىّ) .. أنا معك .

ارتبكت صفوف ذوى الملابس الخضراء عندما رأوا الفارس المقبل

وصاح أحدهم بتوتر :

ـــ إنه (الزين) .. (الزين ابن الجبال) .

تمتم آخر بغضب :

ـــ الفارس ؟! سحقًا .

كان الفارس شاهرًا سيفه فاتجه نفر منهم يبارزونه ، بينما استعاد (عليّ التوحيدى) ثقته كاملة مرة أخرى ، وظهرت مهارته فى المبارزة أكثر وهو يطيِّر سيف أحدهم ويخدش كتف آخر متفاديًا قتل أى منهم .. ما كاد ينتهى من آخرهم حتى سمع صوت (الزين) يقول :

ـــ هيا افرغ من الأخير يا (علىّ) فلدينا أمر طارئ .

رد (علىّ) وهو يغرز سيفه بذراع آخر من بقى على صهوة جواد يسأل :

ـــ هل فرغت منهم بهذه السرعة ؟!!

ـــ نعم يا (علىّ) ، لقد سئمت سؤالك هذا كل مرة .

ابتسم (علىّ) وهو ينطلق بجواده محاذيًا (الزين) وهو يسأله :

ـــ ما هذا الطارئ الذى تطلبنى إليه ؟

ثم استدرك قائلاً :

ـــ وكيف عرفت بأمر مبارزتى مع هؤلاء الرجال ؟!

ـــ أمر معرفتى هذا سأفسره فيما بعد ، أما الآن فعلينا اللحاق بالشيخ (عبد الحميد) فى داره ، بعض اللصوص حاولوا اقتحام بيته ، لكن أمسك بهم الجيران .

ــ ما كان هذا ليثير اهتمامك يا (زين) ، فهو أمر بسيط سيتولى الرجال تصفيته ، إن فى الأمر أمرًا .. أخبرنى به .

ابتسم (الزين) وهو يقول :

ــ صـــدقت يا (علىّ) ، إن فى الأمر أمرًا .. ألا ترى أنه ليس من الطبيعى حدوث هذا للشيخ (عبد الحميد) ؟

* * *

عندما وصل (الزين) و(علىّ التوحيدى) دار الشيخ (عبد الحميد) ، وجدا أن اللصوص قد اقتيدوا إلى القاضى لينظر فى أمرهم ويحكم ، وكان الشيخ يجوب أرجاء مترله قبل أن يجيب دقاهما على الباب ، ثم عاد لما كان عليه مرة أخرى ، فســـأله (الزين) :

ــ هل تبحث عن شىء يا شيخنا ؟

ــ أبحث عما سرقه اللصوص يا (زين) .

قال (علىّ) :

ــ ولكن الجيران أخبرونـــا بأهم فتشـــوا اللصوص ولم يجدوا معهم ما يريب أو يدل على سرقة ، أظن أن جيرانك كشفوهم فى الوقت المناسب .

ــ أشياء تخصنى كنت أخفيها اختفت يا (علىّ) ، كُتب وخرائط قديمة همنى جدًا .

قال (الزين) :

ــ هل نبحث معك ؟

هز الشيخ رأسه نفيًا وهو يقول :

ـ لا فائدة ، بحثت فى كل مكان .. لقد نالوا مرادهم .

ـ كيف إذن والرجال قد فتشوهم ولم يجدوا شيئًا معهم ؟ بل وكيف أيضًا عرفوا ما تخبئ ومكانه يا شيخ (عبد الحميد) ؟

جلس بائسًا وهو يجيب :

ـ لا أدرى يا (زين) .. حقًّا لا أدرى .

قال (علىّ) :

ـ لابد أن نخبر القاضى إذن باختفاء أشيائك يا شيخ .. فهو أغلب الظن الآن سيعاقبهم بتهمة محاولة السرقة ، وليست السرقة فعلاً .

ـ لن يُجدى شيئًا يا (علىّ) ، فكما قال (الزين) لم يجد الرجال معهم شيئًا ، فكيف سرقوا إذن ؟

ـ والأشياء مختفية ؟

ـ نعم مختفية ، ليست مسروقة ، سيقول القاضى إنها إهمال منى لا سرقة .

قال (الزين) :

ـ يا إلهى .. لكن ربما أخفوها فى المنزل ليعودوا لها فيما بعد ، فلنبحث فى المنزل .

ـ بحثتُ يا (زين) .. الأمر أكثر دهاءً مما ترى ، ولكن يجب أن نتوصل إليه .

ـ كيف يا شيخنا ؟

ـ فقط سنعرف .. تعاليا معى .

وغادر الجميع الدار .

* * *

الليل .. و(الزين) يتقلب فى رقدته تحت الغطاء ، يتابع إنصاته الذى طال لدقات قلبه المنمقة الهادئة .. هو الذى لم يعتد قلبه على هذا الحال من قبل .. جذب هذا القلب انتباهه كأنما لأول مرة يكتشف أن بين أضلاعه قلبًا ، حسبه من قبل طبلة يعلو قرعها وقت الشدائد ويسكن فى لحظات الهدوء .

ظلت صورة الفتاة تعبر أمام عينيه كل فينة منذ تركها ، صورة غير محددة ، ربما لأنه لم يحفظ شكلها بهذه السرعة ، نظرة سريعة لا تكفى ، لكن فى المرة القادمة عليه أن يحملق جيدًا لحفر صورتها فى ذاكرته .. « وهل هناك مرة قادمة ؟ بلا شك .. بل لابد من مرة قادمة » .

رفس بقدميه الغطاء ، ثم اعتدل من رقدته وجلس ساخطًا على الأرق ، لم تلبث أن داعبت شفتيه ابتسامة ، وصورتها غير المحددة تمر أمام عينيه من جديد ..

ــ متى سأراها .. أقريبًا ؟؟

ــ بل سريعًا جدًا .

ــ هل سأتعرفها إذن ؟

ــ تبًا ، أأحادث نفسى ؟

ــ هل جننت ؟

ــ هل عشقت ؟!

كان يتساءل ويجيب ، ثم استرجع كل ما قيل عن الحب الذى يصنع الخبال .. إنه لا يزال فى بداية هذه المشاعر ، وعندما يتعمق فيها سيصاب بالمزيد .. لكنها ليست بالمشاعر السيئة على كل حال .

* * *

أمر الملك (شاكسير) الحاجب باستدعاء الوزير ، ثم اتجه بحديثه إلى ابنته يسألها :

ـــ أين كنت ووصيفتك ؟ بحثنا عنكما فى القصر والحديقة كثيرًا .

ـــ كنت فى المدينة يا أبى ، أتفقد أحوال الناس وأستشعر آراءهم فى الحكم والحاكم .

استرعى الأمر اهتمامه فسألها :

ـــ مــاذا وجدت إذن ؟

ـــ الرضا يا مولاى .. إنهم قوم طيبون يا أبى والجميع يجد قوت يومه ، ولكن لاحظت حديثهم بنفور عن ذوى الملابس الخضراء .. قوم يقيمون فى الجبل على الجانب الشرقى من المدينة ، يقتحمون البلد ودكاكين التجار بين حين وحين .. فهمت أنهم قُطَّاع طرق ولصوص لا تأمن الرعية على حياتها وأموالها منهم .

ـــ لقد بذلت ما فى وسعى لإقصائهم وعزلهم ، ولكن دون جدوى .. إنهم ماهرون فى الاختفاء والمبارزة .

ـــ ولكن يا أبى ...

دخل الحاجب معلنًا وصول وزير الدولة ، فأمره الملك بالانتظار حتى ينتهى من حواره مع الأميرة ، وبعد خروج الحاجب قال :

ـــ لكن ماذا يا بنتى ؟

ـــ سمعت أثناء عودتى أن شابين قـــد تبـــارزا مع بعض من ذوى الملابس الخضراء هؤلاء ، وأنهم قد أذوهم دون قتلهم .

بدا الاهتمام على وجه الملك وهو يسألها :

ـــ شابان ومن يكونان ؟ ولماذا تبارزا معهم ؟ لماذا دون قتلهم ما داما قد تغلبا عليهم ؟!

ابتسمت الأميرة وهى تقول :

ـــ مهلاً يا أبى .. لا أعرف إجابات كل هذه الأسئلة ، فقط نقلتُ إليك ما علمته من أحوال الناس وما يدور بينهم .

ـــ لا بأس يا فتاتى ولكن كيف لأميرة مثلك أن تخرج وسط المدينة وتتعرف أخبارها ؟!

ـــ بالطبع لم أكن أميرة يا أبتِ ، فقد ارتديت ملابس متواضعة كالدارجة بينهم ، وكذا وصيفتى .

ثم قالت بمرح مفاجئ :

ـــ هل تعلم يا أبى .. لقد ابتعتُ برتقالاً كثيرًا .

ضحك الملك وهو يقول :

ـــ بالخارج أراضٍ مديدة نزرع فيها كل أنواع البرتقال .

ـــ ولكن البائع الطيب كان يستحق أن أشترى منه كل ما يبيع .

ـــ حسن يا بنيتى .. اذهبى إلى غرفتك الآن ، ولا تكررى مثل هذا الفعل قبل أن تخبرينى .

انحنت قائلة فى تأدب :

ـــ سمعًا وطاعة يا مولاى .

ثم خرجت من الديوان ، وأمر الملك بدخول الوزير .

* * *

عندما شارف جواد (الزين) على الاختفاء عن ناظريها ، ألقى بنظرة خاطفة ناحيتها بسرعة لكن حجبها الغبار عنه ، هى لمحت هذه الالتفاتة ، فتألقت ابتسامة جذابة على شفتيها كأنما ترسلها له دون وعى .

جلست فى غرفتها تحاول استعادة ملامحه حتى لاحظت صدرها الذى يخفق كنبضات عصفور ، ثم أطرقت برأسها خجلة عندما تذكرت تلك الحرارة التى شعرت بها فى وجنتيها وأذنيها عندما نظر إليها الفارس .. أهو حقًّا فارس ؟ كل شىء فيه يشى بذلك ، نظراته .. ملابسه .. وضعية جلوسه على الجواد .. كل شىء ، ولكن ما اسمه ؟ من يكون ؟ أهو أحد اللذين تقاتلا مع الرجال الأشرار ؟ ألهذا تركها بسرعة دون أن يتحدث إليها فى السوق ؟

ما هذا الذى تشعر به الآن ؟ إنها لم تنتبه لشاب من قبل كما حدث مع هذا الفارس .. ما اسم هذا الذى تشعر به إذن ؟

وانتفضت على صوت الوصيفة تستأذن فى الدخول .

* * *

بعد أيام ، اقتحم كبير الجند ديوان الملك (شاكسير) بعصبية :

ـــ كارثة يا مولاى .. جيوش الغرب تتجه إلينا متحفزة .

كان فى القاعة بعض ولاة المدن التابعة لحكم الملك (شاكسير) ، وقد كفوا عن الحديث عند الدخول المفاجئ ، سأله الملك بقلق :

ــ لأى غرض ؟

ــ الحرب يا مولاى .. الحرب ، طريقتهم فى التقدم تدل على نية الغزو ولا غير .

ــ متى سيصلون ؟

ــ (عين الدولة) يقــول إنهم على مسيرة أقل من يوم .. هو الذى اكتشف زحفهم وجاء يبلغنا .

امتلأت القاعة بهمسات كثيرة ، بينما وقف الملك يدور فيها كعادته كلما استدعاه أمر للتفكير ، ثم سأل الحضور :

ــ ماذا ترون ؟

وجه أحد الولاة سؤالاً :

ــ كم عدد الزاحفين يا كبير الجند ؟

ــ كثير يا سيدى .. جيادهم تثير غبارًا كالعاصفة .

تساءل آخر :

ــ لماذا ينوون الحرب ؟ تجارتنا معهم رائجة وما عاديناهم من قبل .

أجاب أحد الجالسين :

ــ يطمعون فى خير بلادنا ويهددون أمن أهلها .

جلس الملك على عرشه بينما قال رابع :

ـــ هُراء .. لسنا مطمعًا لهم فى شىء ، كل ما يريدونه يحصلون عليه بالتجارة منذ سنين .. هناك ما يريب .

قال الملك بلهجة حازمة :

ـــ جهز رجالك يا كبير الجند ، فعلينا حماية البلاد والدفاع عنها فى كل الأحوال .. وحاول أن تبعث إلىّ بقائد جيشهم فور وصوله للتفاوض معه ومعرفة سبب عدائهم المباغت ، فلسنا بلاد حرب ولا حاجة لنا بها .

انحنى كبير الجند وهو يتراجع بظهره قائلاً :

ـــ سمعًا وطاعة يا مولاى .

صاح الملك بانفعال :

ـــ أين وزير الدولة ؟

* * *

ـــ كيف عرفت بملاقاتى ذوى الملابس الخضراء يا (زين) ؟

ـــ أنت تُكثر من الأسئلة هذه الأيام يا (علىّ) ، هوّن عليك .

ـــ بل أنت تتجاهل الرد ، أربعة أيام حتى الآن ولم تجب سؤالى هذا .

ـــ علمتُ بطريقتى يا (على) ، فأنت صديقى الوحيد ولابد أن أعرف عنك كل شىء ، حتى المكان الذى ستقاتل فيه بعض الحمقى بسبب تحدٍّ غبى فى لحظة غضب .. لابد أن أعلم به ولو لم تخبرنى بنفسك .

كما تشاء يا (زين) .. لن أكرر سؤالى هذا مرة أخرى .

كانا يسيران فى المدينة قبل أن يتوقف (الزين ابن الجبال) ويسأل :

ـــ ألا تعرف ماذا فعل الشيخ (عبد الحميد) بعدما لم يجد أشياءه المفقودة ؟

ـــ أظنه يحاول كتابة غيرها .. لقد ذكر شيئًا ما عن مخطوطات أولية أو ما شابه .

ـــ عظيم .. هيا بنا نذهب إليه ، قد يحتاج لمعاونتنا .

ـــ ألن تخبرنى كيف عرفت مكانى يومها ؟

وقف (الزين) يقهقه كثيرًا حتى جذب أنظار المارة فى شوارع المدينة ، مما أخجل (علىّ التوحيدى) الذى ترك صديقه يقهقه وحيدًا وسار مبتعدًا عنه ..

فى صمت .

* * *

٢ ـ الحكـايـة ..

وقف قائد جيوش الغرب أمام الملك (شاكسير) واستهل حديثه بـ :

ـ لو لم أرجع لجنودى خلال ســاعة ، فسيقتحمون القصر ويكتسحون كل ما فيه .

قال الملك بهدوء :

ـ أنت هنا فى أمان ، ولك حرية الانصراف وقتما شئت .

ـ هذا عظيم .. فقد غامرتُ بتلبية رغبتك للمثول أمامك كما أخبرنى قائد جنودك .

ـ أنت هنا فى ضيافتى ، ولا مغامرة فى الأمر ، إنما أردت سؤالك عن سبب شروعكم غزو مملكتى .

ـ اتقاء لشركم .. لقد وصلنا أنكم تخططون لغزو بلادنا .

بدت الدهشة على وجه الملك وهو ينهض سائلاً :

ـ من أخبركم بمثل هذا ؟ وما الدليل على نية سيئة نضمرها لكم ؟

ـ وصلتنا بعض خرائط مرسومة لحدود دولتنا وبعض دول أخرى ، وكُتب عن تاريخ الحروب وفنون القتال ، كتبها رجل من بلادكم علمنا أنه على ولاء للسلطة وارتباط بالملك .

ـ من يكون هذا الرجل ؟ وكيف وصلتكم أشياؤه هذه ؟

ـ وصلتنا من محبى سلام فى بلادكم لن نفصح عنهم .. والرجل يدعى الشيخ (عبد الحميد) ، هكذا اسمه على أغلفة الكتب وأذيال الخرائط .

ــ الشيخ (عبد الحميد) ! إنه رجل مخلص للوطن وداع للسلام بين الشعوب ، بالفعل هناك صداقة بينى وبينه وهو مؤيد لسلطتى فى البلاد كأى من أفراد الرعية ، ولا نضمر نيــة لغزوكم أبدًا .. سأستدعيه أمامك لنعرف كل شىء ، فهل توافق ؟

أخذ الرجل يتفحص وجه الملك ليتبين صدق كلامه من عدمه ، ثم أدار عينيه بين الحضور ، وكانوا وزير الدولة وكبير الجند والحاجب ، ثم أجاب :

ــ لا بأس ، ولكن علىّ إبلاغ جنودى بتأخرى عنهم قليلاً .. وأرجو نداء معاونى الأول من بينهم ليكون معى .

ــ سيقوم بهذه المهمة البسيطة كبير جندنا ، بينما يذهب الحاجب لاستدعاء الشيخ (عبد الحميد) .

خلع قائد جيش الغرب خاتمه المرصع بيواقيت صغيرة على جوانبه ، مسحه فى ملابسه وناوله لكبير الجند وهو يقول له :

ــ ناولهم هذا الخاتم ليثقوا فى كلامك .

أخذ كبير الجند خاتم قائد الجيوش وخرج من القاعة ، بينما بعث الملك حاجبه لتنفيذ أمر استدعاء الشيخ ، ثم نادى بضيافة كبير جيوش الغرب ومعاونه القادم ، وبتقديم الماء للجنود المنتظرين على حدود المدينة .. قال الوزير للرجل :

ــ أنتم ــ أهــل بلاد الغرب ــ شديدو العصبية متسرعون فى اتخاذ قراراتكم .. لا تحكّمون عقولكم برويّة .

كان القائد قد جلس بعد انصراف كبير الجند فأجاب :

ــ ليست بلادنا فى دفء بلادكم يا وزير بلاد الشرق ، ولهذا الأمر

تأثير بالغ على تصرفاتنا .

ــ أرجو ألا تطمعوا فى دفء بلادنا إذن .

ــ نحن قوم مسالمون ، لكن عندما نلمح الخطر يقترب من بلادنا .. فنحن شديدو الخطورة .

ــ لا داعى لهذه التعبيرات المعادية .. سوف تكتشف أن فى الأمر التباسًا شديدًا ، وأن هناك من يسعى لإيقاع الفتنة بيننا وبينكم بطرق رخيصة ، وما كان يجب أن تنطلى عليكم .

ــ نحن فى الحياة لنتعلم أشياء كل يوم .

قال الملك وهو يبتسم :

ــ قائد حكيم .. إن إمبراطوركم لمن الحكمة أن عيّنك قائدًا لجنوده .

ــ شكرًا لإطرائك جلالة الملك .

تابع الملك :

ــ ما اسم ضيفنا قائد جيوش الغرب ؟

عرّف الرجل نفسه ، بينما رجع كبير الجند يقول :

ــ لولا الخاتم ما شربوا الماء !

قال مساعد قائد جيوش الغرب بعصبية وهو يتبعه للقاعة :

ــ بل ولقتلوك واقتحموا المدينة !

رحب به الملك ، فرد عليه التحية بشىء من الفظاظة .. بعدها كبير الجند سأل :

ـــ ولكن لماذا فحصوا الخاتم طويلاً قبل أن يستمعوا إلىّ ؟

أجاب المساعد :

ـــ إنها أمور خاصة بنا لا يطَّلِع عليها غريب يا هذا .

كانت فى لهجته عدائية واضحة خاصة مع تعبيرات وجهه الغاضبة ، فأنقذ قائد الجيوش الموقف بقوله :

ـــ لا بأس أن نخبرهم لنظهر لهم ـ على الأقل ـ حُسن النية ، وأننا قد جئنا دفاعًا عن وطننا لا اقتحامًا لأرضهم .

ابتسم الملك وأعجب كبير الجند بما قيل ، فاستطرد قائد الجيوش قائلاً :

ـــ لو أنك انتزعت الخاتم وأعطيته لهم بعد عراك بيننا ، لناله بعض الغبار فيعرفوا أننى أسيركم ، أما لو أنك أخذته بعد قتلى فلتلطخ ولو بقطرة دم ، حتى لو مسحتها لعرفوا من مذاقه .. عندئذ يعرفون أنى قُتلت .

ـــ ألهذا مسحت الخاتم فى ملابسك قبيل مناولتى إياه ؟ ظننتك فعلت لتحافظ على بريق يواقيته الدقيقة .

ـــ ربما هو سبب أيضًا يا كبير جند بلاد الشرق .

قالها مبتسمًا ، بينما مساعده على حاله من التجهم .. والملك يتابع الحديث المتبادل بقلق لتأخر وصول الشيخ (عبد الحميد) ، ثم قال لمساعد القائد :

ـــ تفضل من الفاكهة والشراب يا مساعد القائد .

نظر معاون قائد جيوش الغرب لقائده الذى أومأ برأسه ، فتناول مما أمامه وأخذ يتذوقه ، ثم يقضم بحذر .

* * *

ــ الملك يريدنى أنا ؟!

ــ نعم يا سيدى .. بل ويتعجلك أيضًا .

ــ حسن سآتى معك .. فقط انتظرنى هنيهة .

عاد الشيخ (عبد الحميد) للداخل فسأله (الزين) :

ــ ماذا هناك يا شيخ ؟!

ــ الملك يطلب حضورى فورًا .

ــ هل نأتى معك ؟

ــ لا أدرى .

أخذ يبدل عباءته ويسوّى لحيته وشعره ، ثم قال :

ــ بل ابقيا هنا ، أكملا رسم الخرائط كما أوضحت لكما .. أرغب فى الانتهاء من هذا الأمر سريعًا .

ثم خرج للحاجب يصحبه إلى القصر .. قال (على) :

ــ تُرى ماذا هناك يا (زين) ؟

ــ لا أعلم يا (على) .. فلم يسبق للملك استعجال الشيخ (عبد الحميد) بهذه الطريقة .

ــ فى رأيك ماذا علينا أن نفعل ؟

ــ لا شيء .. سننفذ ما طلبه منا لننتهى من أمر الخرائط هذا بسرعة كما يريد .

قال (على) وهو يقلد خريطة أمامه بخطوط ملونة فى ورقة أخرى :

ــ هل تتذكر عندما كان هذا الرجل عالمًا وفارسًا لا يشق له غبار ؟

ــ ما زال عالمًا يا (على) وروح الفروسية بداخله تنبض طوال الوقت .

ــ أنا أشكر له أن رعانى واهتم بى منذ حداثتى .

رد عليه (الزين) :

ــ لقد جعل منا فارسين حقيقيين ورعانا جيدًا .

ــ إن أمثاله يستحقون الخلود ، ليظل الجانب الطيب من الحياة أقوى من الخبيث .

ــ على مر الزمن كان هناك وسيكون من أمثاله الكثيرون .. أنت أحدهم .

لم تمض ساعة بعد الحوار حتى دق الباب مرة أخرى ، فقام (على) ليرى الطارق فبدا له وجه الحاجب ، وقبل أن يفتح الحاجب فمه صاح (على) بـــ (الزين) :

ــ إن الأمر جد خطير يا (زين) .

* * *

وقف (الزين) و (علىّ التوحيدى) إلى جانبى الشيخ (عبد الحميد) الجالس فى ديوان القصر الملكى ، أمام قائد جيوش الغرب ومساعده ووزير الدولة .. سألهما الملك :

ــ ماذا تعرفان عن ذوى الملابس الخضراء ؟

نقّلا بصرهما إلى بعضهما ، ثم إلى الشيخ (عبد الحميد) قبل أن يبدأ (علىّ) بالكلام قائلاً :

ــ إنهم قاطعو طرق ولصوص متمرسون ويقال إنهم يهود ، إذ إنهم لا يجازفون بأنفسهم فى سرقة إلا بعد دراسة جيدة ومعرفة لكل التفاصيل التى من شأنها إنجاح خططهم .. هم شديدو البأس يرأسهم قائد جيش سابق ليس من بلادنا يُدعى (سانتور) السفاح .

ــ هل أنت من تغلّب عليهم منذ أيام قليلة خارج حدود المدينة ؟

ــ إنه (الزين) قد عاوننى فى هذا الأمر .. ولولاه لقُضِىَ علىّ ، فعددهم كان كبيرًا يا مولاى .

ــ ولماذا يرتدون الزى الأخضر تحديدًا ؟

ــ هو زى موحّد ليعرف بعضهم بعضًا ، وأغلب الظن أنهم يرتدونه ليسهل عليهم التخفى وسط الأشجار وبين الأعشاب ، خاصة وأن هذه الملابس تتميز بلون الرمال من الجانب الآخر .

ــ وكيف لك ولصديقك التغلب على رجال أشداء كهؤلاء ؟

أجاب (الزين) هذه المرة :

ــ صداقتك القديمة للشيخ (عبد الحميد) يا مولاى تسهل الإجابة ، فهو أشجع فرسان البلاط الملكى فى العهد السابق ، وقد رعانا منذ صغرنا فلم نعرف لنا أبًا غيره ، وهو من علّمنا العديد من مهارات القتال والمراوغة .

ــ هل أنتما يتيمان ؟

قال الشيخ (عبد الحميد) مقاطعًا :

ــ فلنناقش أمرهما فيما بعد يا مولاى كى لا نؤخر ضيوفنا أكثر من هذا .

استدار الملك إلى قائد جيوش الغرب قائلاً :

ــ إنهم سيبيتون عندنا الليلة إن شاءوا ضيوفًا مكرمين ، ولهم الحق فى الرحيل وقتما أرادوا .

قـــال القائد :

ــ نشكر لك كرمك يا جلالة الملك ..لكن الإمبراطور بلا شك يتحرق لمعرفة تطورات الأحداث ، ولابد من نقل الصـــورة الجديدة له حتى يهدأ باله ويأمن على الوطن من ناحيتكم .

ــ لا بأس يا قائد الجيوش ، وهذه الدعوة متاحة لكم فى أى وقت .. بلغ تحياتى للإمبراطور .

انحنى قائد الجيوش ومساعده تحيـــة للملك ، ثم انصرفا من الديوان ، فعاد الملك للشيخ (عبد الحميد) يسأله :

ــ ما حكاية هذين الشابين يا (عبد الحميد) ؟ كيف لم أسمع بهما من قبل ؟

ــ فليسمح لهما مولاى بالجلوس أولاً .

أشار الملك لهما بيده ، فجلسا جوار الشيخ الذى تابع وهو يضع كفه على كتف (على) :

ــ إن (على) ابن قريب لى توفى وزوجته بعد إنجابه بشهور قليلة .. فرعيته كما لو أنه ابنى أنا ، وأنت على دراية يا مولاى بأنى لم أرتبط بعد وفاة زوجتى .

أومأ الملك بينما أطرق (على) برأسه ، وأكمل الشيخ :

ـ أما (الزين) فكان بين الجبال أثناء تفقدى ذات مرة الجانب الشرقى للمدينة ، يوم كنتُ كبير فرسان القصر يا مولاى .. كان وجهه مليحًا فأطلقت عليه (الزين) ، ولما لم أعرف له أهلاً فدعوته بـ (ابن الجبال) .. الجبال التى احتضنته حتى وجدته .

توقف الشيخ قليلاً عن الحديث يلتقط أنفاسه ، وأمر الملك بالماء والفاكهة وبعض من شراب الفاكهة لكل الحاضرين .. كان الوزير صامتًا كعادته يتابع ما يقال .. وما إن شرب الشيخ بعض الماء حتى شرع فى إكمال حكايته :

ـ ربيتهما قدر ما استطعت ، وعلمتهما القراءة والفروسية وإمساك السيف .. لاحظت نبوغهما واستيعابهما السريع ، وإن تفوق (الزين) أحيانًا على (على) فى بعض الأمور .

ابتسم (الزين) وهو يلقى بنظرة سريعة لـ (على) الذى شعر بها فلم يُدر وجهه ناحية رفيقه ، والشيخ يكمل مستطردًا :

ـ لم أخبرك بأمرهما يا مولاى خشـية أن تظن فى نيتى غرضًا ما بشأنى أو شأنهما ، فأنا لا أحب إثارة الشكوك .

ـ إننا أصدقاء قدامى يا رجل ، كيف يمكن أن أسيء الظن بك ؟!

ـ لقد كانت هذه الأحداث فى بداية تعارفنا يا مولاى .

ـ يا إلهى ، هل هما بهذا القدر من العمر ؟

ـ نعم يا مولاى إنهما يشرفان على عامهما الثلاثين رغم عدم وضوح هذا على وجهيهما .. وأحيانًا لا يظهر على تصرفاتهما أيضًا .

قالها وهو يدير بصره بينهما فأطرقا خجلاً ، بينما دخل الحاجب يهمس في أذن الملك بشيء فقال الملك :

ــ دعها تدخل ، فهذا وقتُ تناول العشاء .

وأمر بتحضير المائدة .

* * *

سار الشيخ (عبد الحميد) مع (على) و(الزين) عائدين إلى داره ، فسأله (على) قائلاً :

ــ ماذا حدث فى القصر يا شيخ ؟ وما الأمر ؟ ولماذا استدعوك واستدعونا ؟

ــ مؤامرة يا ولدى .. (سانتور) يدبر شيئًا عظيمًا .

سأله (الزين) بقلق :

ــ ماذا هناك يا شيخ ؟

ــ الغرب كانوا هنا اليوم لغزو بلادنا ، بعد أن وصلتهم أخبار عن نيتنا فى غزوهم .

ــ كيف هذا ؟ إن الملك يستحيل أن يقرر شيئًا كهذا أبدًا .

ــ هذا صحيح يا (على) ، لكن (سانتور) أرسل رجاله لسرقة كتبى التاريخية وخرائطى ، ثم بعث بها إلى إمبراطور الغرب يحذرهم من تخطيطنا لغزوهم ، كانت الخرائط والكتب دليلهم على هذا .

ــ ولكن لم نجد مع اللصوص شيئًا يا شيخ !!!

تفكر الشيخ قليلاً ، ثم قال :

ــ الآن فهمتُ خطتهم يا (زين) ، لقد حملها أحدهم وفر ، ثم تستر عليه الآخرون بالاستسلام للجيران كى يلهوهم عن وجود آخر معهم حتى يبتعد بالقدر الكافى ، ويصبح فى أمان .

ــ خطة ماهرة .. وفيم كانت الخرائط والكتب منذ البداية يا شيخ ؟

ــ يا ولــدى ، إن الكتب تذكُر تاريخ الحــروب فى بلادنا والبلاد الأخرى وما آلت إليه هذه البلاد ، كما تذكُر أنماطًا من الخطط الحربية التى استخدمها القادة وقتها .. أما الخرائط فبعضها قديم يوضح ما كانت عليه الدول قبل الحروب وبعدها من زيادة أو نقصان فى مساحتها وحدوها ، هذا ما استخدمه رجال السفاح ضد الملك .. أنا أحصر هذه الأشياء وأحسن صياغتها ليستفيد منها البشر بعد أن أفرغ منها ، فربما يحجمون عن صراعاتهم وتندر الحروب .

ــ كيف عرفوا بوجود هذه الأشياء وبمكانها يا شيخ ؟

ــ لا أدرى يا (زين) .. حقًّا لا أدرى .

وصلا منزل الشيخ (عبد الحميد) الذى دخل منهكًا من عناء اليوم ، وعقلا الفارسين يبحثان عن إجابة للسؤال الذى طرحه (الزين) ، وكان (الزين) يسترجع الأحداث الأخيرة فى قصر الملك ، العشاء وابنة الملك التى شاركتهم فيه .. دقات قلبه المتسارعة .. عدم تركيزه فى الحوارات التى كانت على المائدة ، كان يحاول تحديد مشاعره تجاه كل هذه الأمور .

* * *

كانت جياد الغرب تتجه إلى بلادها فى رحلة تستغرق يومين ، ويتوسط الجنود قائدهم ومساعده الذى سأل :

ــ هل تظنهم حَسَنِى النية حقًّا أيها القائد ؟

ــ نعم ، لكن هذا لا يعنى أن نأمن جانبهم تمامًا .. علينا الحذر دومًا حتى تثبت الأمور على حالها .

ــ لماذا إذن لم نقم بمهمتنا الرئيسية ؟ كان بإمكاننا سحقهم بسهولة .

ــ الحرب ليست الوسيلة الأولى فى مواجهة الخطر .. ولا تنس جنودنا الذين سيصابون ويموتون من جراء معركة يمكن تلافيها ، بما فيهم أنا وأنت .

ــ أنا لا آبه بما يصيبنى فى سبيل البلاد والإمبراطور .

ــ الشـــجاعة لا تعنى الحمـــاقة .. سنخبر الإمبراطور بكل ما حدث وأضيف رأيي الخاص ، وله حرية التصرف كما يشاء .. عد إلى المقدمة الآن ، هيا .

ونفذ المساعد أمر قائده ..

* * *

وصـــل (الزين) داره وبدّل ملابسه ، ثم جلس على الفراش يتذكر دهشته لرؤية الأميرة تدخل عليهم بملابسها الأنيقة التى لا تقارن بتلك يوم رآها فى السوق مع وصيفتها .. نظراتها الأخيرة له من خلف الغبار الكثيف وهو منطلق بجواده .. نظراتها له على مائدة الطعام .. ملامحها التى عاهد نفسه بتفرُّسها والتدقيق فيها ليحفظها فى عقله .. بل فى قلبه .. « كم هى جميلة ! »

واستمر فى خواطره حتى نام .

* * *

٣ ـ الرحلة ..

فتح (عليّ التوحيدى) باب منزله بعد الطرقات المميزة لـ (الزين) وهو يقول متثائبًا :

ــ مبكر أنت اليوم يا (زين) ، خيرًا ؟

ــ أرسل الملك فى طلبى ، تعال معى .

تنبه (على) وزال عنه الخمول ، وهو يقول :

ــ سآتى معك حتى القصر ولكننى لن أدلف إليه .

ــ ولِمَ ؟

ــ هل ذكر الملك اسمى فى استدعائه لك ؟

ــ كــلا .

ــ إذن سأكون بانتظارك خارج القصر ، فإن احتجتنى تجدنى قريبًا .

ــ لا بأس .. هيا بنا .

سارا معًا يحاولان استنتاج سبب الاستدعاء حتى وصلا بوابة القصر ، فدخل (الزين) وبقى (على) .

رحب الملك بـ (الزين) الذى لم يلمح الشيخ (عبد الحميد) فى المكان المقتصر على الملك والوزير ، بعد خروج الحاجب الذى أوصله .. قال الملك :

ــ لا تقلق يا (زين) فالشيخ (عبد الحميد) لا يستيقظ مبكرًا هكذا ..

ضحك الملك قليلاً ، ثم استطرد :

ـــ لقد جالت بخاطري فكرة أرقتنى طوال الليل ، فلم أطق صبرًا حتى أخبرك بها ، كما لم أشـــأ إزعاج الشيخ فى هذا الوقت المبكر وهو ـ دون شك ـ سيعلم بما دار هنا فيما بعد .

ظل (الزين) ما بين ابتسامة وصمت والملك يكمل كلامه :

ـــ هل تعرف كم أبلغ من العمر يا (زين) ؟

ـــ أطال الله بقاءك يا مولاى ، أظن جلالتك على مشارف السبعين .

ضحك الملك وهو يقول :

ـــ نظرة ثاقبة يا فتى ، رغم أننى أبدو أصغر سنًّا لكونى فارسًا سابقًا اشتعلتُ طاقة وقوة فى شبابى .

مرت لحظات صمت فى الديوان وبدا الملك كأنما يفكر أو يتذكر شيئًا ، ثم سأل :

ـــ ماذا لو حكمتَ البلاد يومًا واحدًا يا (زين) ؟ هل تقدر ؟

بدا التعجب على وجه (الزين) قبل أن يقول بصوت يشوبه التوتر :

ـــ لا يوجد من يقدر على فعل شىء فى حكم يـــوم واحد يا مولاى ، لكن أظننى سأتابع حفظ أمنها فى هذا اليوم .

ابتسم الملك معجبًا بالرد ، ثم قال :

ـــ وماذا لو حكمت البلاد شهرًا ؟

ـــ سأحاول الحفاظ على أمنها يا سيدى .

دقيق هذا الشاب فى انتقاء كلماته ، « سأتابع » ثم « سأحاول » ، هكذا

خطر للوزير بينما استمر الملك فى سؤال (الزين) :

ـــ ماذا لو أنك حكمت البلاد عامًا ؟

صمت (الزين) برهة متطلعًا إلى الملك محاولاً سبر أغوار عقله لمعرفة ما يدور فيه ، ثم قال :

ـــ أظن هناك من هم أكثر كفاءة منى لحكم البلاد طيلة هذه الفترة يا جلالة الملك .

قهقه الملك وابتسم الوزير الصامت ، فابتسم (الزين) بدوره مجاراة للموقف ، كل هذا وهو واقف أمام كرسى العرش الذى قام الملك من عليه متوجهًا (للزين) يربت على كتفه :

ـــ وزير الدولة والشيخ (عبد الحميد) قد طعنا فى السن يا (زين) ، صحيح أنهما يملكان الحكمة والخُلُق ، لكن تنقصهما القوة .. وأنت شاب فارس ، لكن تنقصك الخبرة فى أمور كثيرة .

عاد الملك للعرش يجلس عليه وهو يقول بحزم :

ـــ هل تقبل حكم البلاد من بعدى يا (زين) ؟

اتسعت عينا (الزين) وفغر فاه ، ثم تدارك نفسه سريعًا من وضع ملامحه هذا ، وتابع دخول الحاجب يهمس فى أُذن الملك بشىء ، فأمره الملك :

ـــ أدخلهـــا .

أحنى الحاجب رأسه وخرج من القاعة لتدخل الأميرة (سولى) بزى يتناسب مع أناقة أميرة ، ووجه مبهج يشع بابتسامة بسيطة ، وهى تتجه بخطوات رشيقة إلى كرسى العرش لتقبّل والدها محيية :

ــ عمت صباحًا يا جلالة الملك .

ــ عمت بالخير يا بنيتى .

انتقلت ببصرها إلى الوزير :

ــ عمت صباحًا يا وزير الدولة .

قال الوزير بصوت رزين :

ــ عمت صباحًا يا أميرة البلاد .

جلست بجوار والدها وهى تنظر إلى (الزين) مبتسمة تسأله :

ــ خيرًا أيها الفارس ، هل لك مظلمة لدى الحاكم ؟

ــ بل أنا هنا بناء على طلب مولاى الملك أيتها الأميرة .

قال الملك :

ــ تابعى حوارنا فى هدوء وستعرفين كل شىء .

أومأت برأسها متفهمة وابتسامتها لا تفارق شفتيها ، ثم أدار الملك وجهه ناحية (الزين) مرة أخرى وقال :

ــ لم تُجب على سؤالى بعد يا (زين ابن الجبال) .

لم يفهم (الزين) سبب تلقيب الملك له بــ (ابن الجبال) فى هذا الموقف ، لكنه تجاهل هذه النقطة قائلاً :

ــ هذا شرف عظيم يا مولاى ، ولكنها مسئولية عسيرة لا أظننى على كفاءة لتحملها .

ــ ستمتلك هذه الكفاءة يا (زين) .. ستمتلكها قريبًا لو أنك قبلت

تنفيذ ما سأطلبه منك ، وستكون عاقبتك خيرًا بإذن الله .

صمت (الزين) برهة لاستيعاب الأمر ، ثم بحث عن رد مناسب فلم يجد من توتره سوى :

ـ أنا فى خدمة البلاد .. وفى خدمة مولاى الملك .

ـ اسمع يا (زين) .. اسمعنى جيدًا فما سأطلبه منك عسير ، ولكننى أثق فى قدرتك على تنفيذه .

ثم أخذ الملك يحدث (الزين) الذى كانت عيناه تتسعان شيئًا فشيئًا ، وعقله يتشتت بين أمور عديدة متغيرة .. وازداد توتره حتى شعر برجفة لم يلمحها الملك .. أو ربما تجاهلها ، لأنه كان مستمرًا فى حديثه دون توقف .

* * *

« ابحث لى عن الصبر فى بلاد الغيظ ، وعن الحق فى بلاد الظلم ، وعن الجوع فى بلاد الغنى .. »

قالها (الزين) فسأله الشيخ (عبد الحميد) مندهشًا :

ـ ماذا تقول يا (زين) ؟

ـ هذه أوامر الملك كى أتولى الحكم من بعده .

ـ الحكم هل ستكون الملك يا (زين) ؟

ـ هكذا أمرنى الملك يا شيخ ، ماذا أفعل ؟

همس الشيخ كأنما يحادث نفسه :

ـ ليس له وريث .

ــ لكن له وريثة .

ــ وهو يود إعداد من يتولى مُلك البلاد من بعده ، أنت تعرف أن النساء لا تصلح لهذه الأمور .

أخذ الشيخ (عبد الحميد) يفكر قليلاً و(الزين) جالس أمامه ينظر إليه حتى قال :

ــ أهذا فقط كل ما أخبرك به الملك ؟

ــ نعم ، وسمح لى باصطحاب من أشاء معى فى رحلتى هذه .. وأنا أستأذنك فى صحبتى .

ــ وحدنا ؟

ــ و(على) بالطبع .

ــ هل أخبرته ؟

ــ نعم .. لكن أخبرنى رأيك .

صمت الشيخ قليلاً وهو ينظر فى عينى (الزين) ، ثم قال :

ــ على بركة الله ، متى ستنطلق فى رحلتك العجيبة هذه ؟

ــ طلب الملك أن أحدد وقتًا وأمثُل بين يديه قبيل خروجى من البلاد .

ــ اختر وقتًا مناسبًا مع (علىّ) ثم أخبرانى بما تقررانه .

ــ أمرك يا شيخ .. إلى اللقاء .

ــ صحبتك السلامة يا (زين) ..

ملأ ليل ما قبيل الفجر سماء البلاد عندما دلف الشيخ (عبد الحميد) مع (الزين ابن الجبال) و(علىّ التوحيدى) قصر الملك (شاكسير) طالبين إيقاظه من نومه للمثول بين يديه ، ولما خرج لهم الملك مرحبًا بكلمات يشوبها النعاس ، تكلم (الزين) :

ـــ سنترك البلاد الآن يا مولاى لبدء رحلتنا .

ـــ أحسنت باصطحابك الشيخ (عبد الحميد) يا (زين) .. و(علىّ) كذلك ، نعم الصحبة لك .

ابتسم (الزين) ، وهو يقول :

ـــ الشكر للشيخ فى موافقته صحبتى ، أما (علىّ) فلا خيار له يا مولاى .

ابتسم الجميع والملك يصافحهم متمنيًا لهم التوفيق ، قبل أن يتبادل مع الشيخ (عبد الحميد) نظرة طويلة بلا كلمة واحدة .. ثم خرج الجميع .

امتطى كل منهم جوادًا ومعهم فرس تحمل زادهم وسلاحهم ، ثم سأل (علىّ) :

ـــ سنتجه شمالاً أم جنوبًا يا (زين) ؟

ـــ أرض المغول القديمة بالشرق فيها من الظلم ما أظنه يكفى حاجتنا منه ، فلنتجه إليها .. ما رأيك يا شيخنا ؟

ـــ أنت القائد يا (زين) فتعلّم أن تتخذ القرار بعد المشورة لا قبلها ، وأن باتخاذك القرار فلا رجعة .

احمر وجه (الزين) فعاجله الشيخ قائلاً :

ـــ لا تخجل يا (زين) أنت فى هذه الرحلة لتتعلم ، ولا يخجل المرء من كونه تلميذًا قط .

ثم ابتسم الشيخ وهو يكمل :

ـــ إلى الشرق يا (زين) .. على بركة الله .

ولكز جواده باتجاه الشرق ، بينما ضوء الفجر يبدأ فى الانتشار .

* * *

دخل قائد جيوش الغرب مدينته ، بعد توزيع جنوده خارجها لتسليم جيادهم وأسلحتهم لزملائهم قبل الذهاب للراحة من عناء السفر ، ولاحظ أول ما لاحظ تجهم الناس فى الطرقات ، ورغم هذا لم يتباطأ لحظة فى طريقه إلى قصر الإمبراطور .. وما إن ترك فرسه عند الباب العملاق للقصر ودخل محدثًا الحاجب حتى عرف أن الحاكم توفى فجأة منذ سويعات قليلة ، وتقلد ابنه تاج الإمبراطورية وجلس على العرش .. كان عناء السفر مع الخبر الجديد كافيين ليجلس القائد على الأرض أمام الحاجب يقاوم دمعة تصر على السقوط من عينيه .

ظل الحاجب صامتًا حتى استعاد قائد الجيوش نفسه ، وطلب إذن الدخول على الإمبراطور الجديد ، وما كاد يؤذن له حتى دلف وبادر بقوله :

ـــ العزاء للإمبراطور ، والمباركة له .

كان يقف بجوار الإمبراطور شخص عرف فيه صديق جلالته من الصغر ، بينما أشار الإمبراطور بيده إشارة ليست ذات معنى وهو يعلو بذقنه المدببة ويميل برأسه ، ثم يقول :

ـــ مرحبًا بك يا قائد الجيوش .. هل انتهيت من معركتك سريعًا هكذا ؟

ـــ لم تكن هناك أية معارك يا مولاى ، فالأمر يحوى بعض سوء الفهم .

أخـــذ يسرد ما دار فى قصر ملك الشرق وأضاف رأيه الخاص فى النهاية ، بعدها تجهم الإمبراطور قليلاً قبل أن يميل عليه صديقه ويهمس بشيء جعل الإمبراطور يقول :

ــ يقترح وزيرنا أن نُخرس ألسنة الشعب بالاستيلاء على مملكة الشرق التى تنوى غزونا ، وفى هذا تثبيت لحكمى الجديد وإبراز لإمكاناتى يا قائد الجيوش ، فهل تقدر ؟

اضطرب قائد الجيوش ، ليس فقط لرغبة الإمبراطور فى تدمير بلاد الشرق وإنما لأنه وصديقه سيكونان ــ بهذا الأسلوب فى التفكير ــ وبالاً على بلاده نفسها .. تظاهر بالتفكير قليلاً قبل أن يقول :

ــ هل يأذن لى سيدى بالراحة لأجيد التفكير واتخاذ القرار الذى يحظى بتأييدكم ؟

نظر الإمبراطور لوزيره الذى أومأ برأسه فسمح لقائد الجيوش بما طلب ، وانصرف من توه .

* * *

طيور تحلق تحت السحاب العابر ، (الزين) فى رحلته مع رفيقيه حتى جن الظلام وهم على مقربة من بعض الجبال المنتشرة ، قال الشيخ :

ــ فلنبحث عن كهف مناسب فى أى من هذه الجبال نقضى فيه الليل يا (علىّ) .

ــ حسن يا شيخ .

قال (الزين) :

ــ سأتجه نحو هذا الجبل يا (علىّ) أتفحصه ، وانظر أنت فى ذلك الآخر .

قالها وهو يشير بيده ناحية ما يقصد بكلامه ، ثم انطلق إلى حيث اختار لنفسه واتجه صديقه إلى حيث كُلف ، بينما انتظر الشيخ (عبد الحميد) مع الفرس يتابعهما بنظره إلى أن صاح (عليّ) :

ـــ هنا يا (زين) .. يوجد كهف مناسب هنا .

اتجه الشيخ و(زين) ناحية الصوت حتى وصلا إليه ، فوضعا أمتعتهما وجلس الجميع على الأرض .

ـــ أما زال أمامنا الكثير يا شيخ حتى نصل لوجهتنا ؟

أخرج الشـــيخ (عبد الحميد) خرائطه ينظر فيها على ضـــوء مشعل جهزه (على) ، ثم رد على (الزين) :

ـــ المســـافة بين بلادنا وبينهم من هـــذا الطريق مسيرة أربعـــة أيـــام يا (زين) .. لا تزال أمامنا ثلاثة إذن .

ـــ أرجو ألا ترهقك الرحلة يا شيخ (عبد الحميد) .

ابتسم الشيخ ، وهو يقول :

ـــ لا تظن أن عظامى ولحمى يتهالكان سريعًا يا ولدى ، فقد أخذا حقهما من الرعاية فى نشأتى كى يتجلدا معى فيما أنا عليه الآن .

فجأة انتفض (على) وقام يركض إلى خارج الكهف ساحبًا سيفه فتبعه بتلقائية كل من (الزين) مسرعًا والشيخ (عبد الحميد) ليجداه ممسكًا بتلابيب شخص غريب بينما يركض آخر مبتعدًا فلحقه (الزين) عبر الصخور الوعرة وأدخلاهما الكهف .. وقف (الزين) أمامهما وهما

ملقيان أرضًا بينما خرج (عليّ) يبحث عن البعير التى نقلتهما ليضمها إلى جيادهم ، ولما عاد إلى الكهف كان أحدهما يقول كأنما يجيب على سؤال وُجه إليه :

ــ أنا (زعيتر) .. أرجوكم لا تؤذونا .

* * *

٤ ـ سانتور السفاح ..

خرج قائد جيوش الغرب مبكرًا بزيه الحربى متجهًا إلى دار أحد أصدقائه ، دق الباب ودخل عندما فُتح له ، وبعد التحيات المتبادلة سأل صاحبه :

ـــ ماذا يقول الناس فى موت الإمبراطور وتقلد ابنه الحكم ؟

أجابه الصديق بسخرية :

ـــ ألا تعلم ما يقولون يا قائد الجيوش ؟

فهم قائد الجيوش تلميح صاحبه فرد بعنف :

ـــ طوال الوقت وأنا خارج الحدود لحفظ أمن البلاد ، أو فى قصر الإمبراطور لتلقى الأوامر .. أى إننى لا أتكبر على الشعب بابتعادى عنهم وعدم معرفتى بما يدور بينهم يا ... يا صديقى .

ـــ لا بأس يا قائد الجيوش ، ولكن ما سأخبرك به لم يصل للإمبراطور قط .. وأنا على دراية بهذا .

ظل قائد الجيوش على صمته ، وهو يتابع الكلمات تخرج من بين شفتى صاحبه الذى مال عليه واستطرد كأنما يهمس :

ـــ يقولون إن الولد قتل أباه ليحل محله .. وضع له سُمًّا أحضره له صاحبه فى الدواء الذى كان يتعاطاه الإمبراطور ، بعدما أصابته وعكة أرقدته يومين .. صاحبه هذا أصبح وزيرًا للبلاد .

ـــ وهل اشترك الطبيب فى هذه المؤامرة ؟

اعتدل صديقه وهو يقول بنبرة صوته التقليدية :

ــ لا نظن .. ولا ننفى هذا أيضًا ، الشك يحوم حول الابن أكثر من غيره ، والذى هو صاحب المصلحة الأولى فى قتل أبيه لتولى الحكم بعده .

ــ أى إنه لا إثبات للتهمة على الولد .

ــ وهل يمكن لأى فرد إثبات تهمة على حاكم يا قائد الجيوش ؟!

قالها بسخرية قام بعدها القائد غاضبًا يتجه نحو الباب ، وهو يقول :

ــ الأيام ستثبت كل شيء يا صاحبى .. فليتحدث الناس بما يشاءون ، ولكن ما دامت الحقيقة لم تظهر فأنا مطيع لأوامر الإمبراطور الجديد .. إلى اللقاء .

خرج وصوت صديقه يعلو قائلاً :

ــ لا نار بدون شرر يا قائد الجيوش .. حظًا سعيدًا .

* * *

بعد مسيرة ثلثى النهار وجد (الزين) نفسه ورفيقيه أمام بوابة مفتوحة لمدينة تدب الحياة داخل أسوارها ويعلو فيها الضجيج ، أخرج الشيخ (عبد الحميد) خرائطه ينظر فيها قبل أن يقول متعجبًا :

ــ لا وجود لهذا المكان على أية خريطة .. لا شك أنها حديثة جدًا ، وربما منذ عامين أو أقل .

ــ هذا غريب .. فلندخلها ونختبر كرم أهلها ، قد نحتاج للمبيت عندهم .

دلفوا من البوابة دون أن يلفت انتباه أى من أهل المدينة دخول أغراب

عليهم ، وكانت هذه ملحوظة أبداها (الزين) لصاحبيه .. استمروا فى سيرهم بتمهل حتى وجدوا جماعة من الناس ملتفين حول شىء ما ، نزل (الزين) عن جواده واتجه يخترق الجمع ليجد شابة مليحة الوجه طويلة الشعر جالسة على وسادة .. ناثرة من حولها أصدافًا وأشياء أخرى لم يتبينها (الزين) ، استنتج من أحاديث المحيطين به أنها تقرأ لهم الطالع ، ابتســـم مستهزئًا مـــن سذاجتهم ورجـــع ليحـــكى ما رآه للشـــيخ (عبد الحميد) و(على التوحيدى) الذى علق بقوله :

ــ عرافة ؟ أما زال هناك من يؤمن بمثل هذه الخرافات ؟!

ــ من الذى يتحدث عن الخرافات هنا ؟؟

قالها كهل عابر بصوت رخيم ، فاتجهت أبصار الثلاثة إليه قبل أن يقول الشيخ وهو يشير بيده ناحية العرافة :

ــ أهل هذه المدينة يلتفون حول عرافة تجهل الغيب .

ابتسم الرجل العجوز المتكئ على عصاه دون أن ينظر ناحية ما أشار إليه الشيخ ، ثم قال :

ــ هذه أهون الأحداث بالنسبة للأغراب أمثالكم ، وقد اعتدنا مثل ردة الفعل هذه على مر السنين .

ــ الســـنين ؟!

قالها (على) و(الزين) بصوت واحد ودرجة دهشة واحدة ، وهم ينظرون إلى ردة فعل الشيخ (عبد الحميد) الذى سأل :

ــ أية سنين تلك التى تتحدث عنها ؟ هذه المدينة لم تكن هنا قبل عامين أو أقـــل .

ظل العجوز على ابتسامته وهدوئه :

ــ ما الذى عبر بكم من هذا الطريق ؟ إن قلائل فقط يعرفونه ، وهناك من يتوهون فيسلكونه .

أجابه الشيخ وقد أدرك تجاهل الكهل إجابة السؤال :

ــ لقد سلكتُ هذا الطريق منذ فترة ليست بطويلة ، وسجلته فى خريطتى هذه .

وأبرز له الخريطة فتناولها الرجل ونظر ، ثم قلبها بين يديه ، وقال بعدها :

ــ لا أفهم هذه الخطوط ولا المصطلح الذى استخدمته ، لكن على أية حال نحن هنا منذ آلاف السنين .. هكذا يقول تاريخنا ، وما خرجنا من هذه المدينة قط .

ازدادت الدهشة خاصة على وجه الشيخ (عبد الحميد) ، بينما (الزين) يتطلع كل فينة إلى الحشد الملتف حول العرافة ، ثم قال الشيخ بعد أن نزل عن جواده :

ــ ما اسم هذه المدينة ؟ وأى حاكم تتبع ؟

ــ إنها مدينة الأساطير .. ويحكمها تاريخنا أيها الشيخ الغريب .

وازداد تعجبهم إلى أقصى حـــد .

* * *

ــ منذ متى تتبعوننا ؟ وما الذى دفعكم لذلك ؟

هكذا سأل (علىّ) (زعيتر) فى الكهف ، أخذ (زعيتر) يدور بعينيه فى وجوههم قبل أن يجيب :

ــ نتبعكم منذ تخطيتم الجبال على حدود بلادكم ، بأمر من (سانتور) العظيم .

ــ السـفاح ؟!!

قالها (الزين) بدهشة فالتفت إليه (زعيتر) وقال بإصرار :

ــ بل (سانتور) العظيم أيها الشاب الفتىّ .

سأله الشيخ (عبد الحميد) :

ــ ولماذا يرغب (سانتور) فى معرفة وجهتنا ؟ ثم لماذا تطيعونه وتعرضون أنفسكم لمثل هذا الموقف ؟

ــ أمرنا سيدى (سانتور) بتتبعكم ومعرفة أين تستقرون ، ثم نعود لنخبره أو نرسل إليه برسالة لو زادت مدة تتبعنا لكم على ثلاثة أيام .

قالها (زعيتر) للشيخ الذى أكمل حواره سائلاً :

ــ لماذا تطيعونه وأنتم تعلمون الخطر الذى ربمـا يقابلكم ؟

ــ لا أحد يرفض أمرًا لسيدى (سانتور) ، كما أننا نجيد مثل هذه الأمور أيها الشيخ العجوز ، وهذا عملنا .

شعر (الزين) بشىء من الثقة يعود لنفس الأسيرين ، فأخرج سيفه ولوح به أمام وجهيهما وهو يسأل ساخرًا :

ــ وماذا تجيدون أيضًا غير التتبع يا هذا ؟

أفلحت لعبته فى زعزعة تماسك الرجلين ، ثم قال (زعيتر) :

ــ نحن مقتفيا أثر : ويجب ألا يلحظ تتبعنا أحد ، لولا هذا الغبى أسقط حصاة صغيرة ما كان لها أن تلفت انتباهكم أبدًا .

أخرج (على) سيفه بدوره وهو يلوح به أمام الآخر .

ــ وهل هذا (الغبى) أخرس يا ترى ؟

ــ بل أستطيع التحدث أيها الرشيق .. وقتما تريد .

قالها بجبن واضح ، ثم قرر (الزين) تقييدهما وحجزهما بين الصخور خارج الكهف لبعض الوقت ، وعاد ليتناقشوا فى أمرهما .. قال الشيخ :

ــ لم أنتبه ولا (الزين) للحصاة التى وشت بوجودهما يا (على) .

ــ بل هى رائحتهما يا شيخ ، الأبلهان يستخدمان عطرًا برائحة الورود ربما للتضليل ، وأنت كما لاحظت لا وجــود لورود حول هذا الكهف .

ــ هل رأيت ما نادوا به كلاً منا يا شيخ ؟

قالها (الزين) باهتمام فأجابه الشيخ :

ــ ربما لا يعرفان أسماءنا فلقبونا بأبرز صفاتنا التى بدت لهم .

ــ وصفانى بالرشيق .

قالها (على) وهو ينظر بجانب عينيه لــ (الزين) ، فابتسم الشيخ ، ثم قال :

ــ ما يقلقنا الآن هو سرقة (سانتور) لمخطوطاتى من قبل ، ثم يرسل من يتتبعنا .. فى نفس هذا المجرم شىء لابد من معرفته .

ــ يمكننا إجبار تابعيه على كشف ما ينتويه .

ــ لا يعرفان شيئًا مما يجول بنفسه يا (زين) ، إن أمثاله لا يأمنون غير أنفسهم على أسرارهم .

ــ ماذا نصنع بهما إذن يا شيخ ؟

فكر الشيخ (عبد الحميد) قليلاً ، ثم قال :

ــ أحضرهما يا (على) .

خرج (على) ليجدهما مقيدين يدوران بأعينهما فى وجوه الجميع ، فبدا الهدوء على وجه الشيخ ورسم (الزين) الغضب على ملامحه بينما اصطنع (على) السخرية فأقلقتهما هذه التعبيرات مما بث شيئًا من الفزع فى داخليهما :

ــ ماذا تعرفان عن (سانتور) ؟ ومنذ متى تعملان تحت إمرته ؟

ظل الرجلان على صمتهما قبل أن يمسك (على) سيفه المغمد ، وهو يقول لرفيق (زعيتر) :

ــ لابد أنك عدت للبكامة مرة أخرى يا هذا .

أجاب الرجل بسرعة ورعب :

ــ إننا معه منذ أعوام أيها الرشيق ، هو قائد سابق لجيش أحد البلاد التى لا نعرفها ، وعُرف عنه القوة والبأس فى قيادة جنوده والحنكة فى كسب المعارك والقسوة فى كل تعامله مع الصديق والعدو .

ــ إن ما تقوله خطير .. ماذا رأيت من أفعاله تدلل به على ما قلت ؟

ــ حُكى أنه كان يومًا فى طريقه بطول النهر وسيوف جنوده مشهرة ليقتحم مدينة متمردة على سلطانها ، فكُلف (سانتور) العظيم بالسيطرة على أهلها وردعهم عن تمردهم ، وكان مما أمر أن يمتنع جنوده عن الشرب من ماء النهر أو الأكل من الزرع المنتشر على ضفته ، وتوعد من

يخالف أمره بالقتل ولو بعد عشر سنين .. ولما طال الوقت كان قد انتاب الجنود شعور بالإنهاك يتسلل إلى أجسادهم وبالجوع والعطش يقلص أمعاءهم .. فسولت لأحدهم نفسه أن يخالف الأمر وكان فى الصف الأخير من المسيرة ، فتباطأ قليلاً واغترف بيده شربة ماء ، ثم اغترف واحدة أخرى لم تروه لكنه تصبر بها على الجوع والعطش .

صمت الرجل قليلاً يلتقط أنفاسه وهو ينظر إلى (زعيتر) ، ثم إلى الشيخ والآخرين ، وبعدها أكمل بينما (على) يتنقل بين مدخل الكهف وداخله كأنما يراقب المكان .

* * *

قبل أسوار المدينة توقف (سانتور) ليرسل برجلين يدوران حول السور لاستطلاع المكان ، ولما أتما مهمتهما ، نادى الرجل الذى اغترف من ماء النهر ، فتقدم الرجل مترجلاً ليمثُل أمامه ، سأله (سانتور) :

ـــ هل ترغب فى أن تكون بطلاً يفخر به السلطان ؟

أجاب الرجل بفخر :

ـــ نعم يا قائد الجيوش .

ابتسم (سانتور) بخبث لم يلحظه الجندى ، وقال :

ـــ افتح بوابة المدينة لندخل .

سأله الجندى بذعر :

ـــ كيف يا سيدى ؟

أجابه (سانتور) بشراسة :

ـــ ألم تشرب من ماء النهر ؟ إن هذا الماء يبعث بقوة ألف رجل فى كل شربة منه ، فكم شربت ؟

قال بانكسار :

ـــ غرفتين .

ـــ إذن فانت بقوة ألفى رجل ، فمن غيرك يمكنه التغلب على حراس هذا الباب العملاق وفتحه ؟ لو لم تكن شربت من النهر لفتحت الباب أنا لأننى أقواكم ألستُ كذلك ؟

ـــ بلى يا عظمة القائد .

ـــ ولكنك اكتسبت قوة كبيرة الآن .

ثم أردف صائحًا :

ـــ هيـــا .

ولّى الرجل ظهره لـــ (سانتور) غير مقتنع بوجود مثل هذه القوة بداخله ، واتجه ناحية البوابة بينما تحرك القائد بجيشه حول المدينة ليصبح خلفها لا أمامها .

* * *

ـــ وهكذا أيها الرشيق قُتل الجندى المسكين عندما كان يتسلل داخل المدينة لفتح الباب ، بينما انقض (سانتور) وجنوده على أهلها من فوق سورها الخلفى وقتلوا من قتلوا حتى استسلم الباقون .

تبادل الشيخ و(الزين) و(على) نظرات فيما بينهم قبل أن يسأل (الزين) :

— وكيف أصبح السفاح هكذا ؟ أعنى لصًّا وقاطع طريق بعدما كان قائد جيوش ؟

نظر الرجل لرفيقه الذى أجاب :

— لم يكتف — حسبما سمعنا — (سانتور) العظيم بقيادة الجيوش ، وكان يطمح فى حكم البلاد كلها .. فعلم السلطان بأمره وعزله لينفيه بعد ذلك خارج الحدود .. لذا بدأ يجمع المجرمين وقطاعى الطرق ليكوّن منهم جيشًا يقتحم به الدولة ويقتل السلطان ثم يستولى على العرش ، ولما كان رجل جيش ومن جمعهم لا خبرة لهم بأمور القتال المنظم ، والكثير منهم لا يعرفون كيفية المبارزة ، فقد بدأ فى تدريبهم وتعليمهم فنون القتال ، لكنه كان فى حاجة إلى موارد الحياة من زاد وغيره .. فاقترحوا عليه ممارسة أعمال اللصوصية ليلاً بعد التدرب نهارًا ، فوافق على أن يجعل الأمر بشكل أكثر تنظيمًا وأقل خطورة .

كان الرجلان يحكيـــان فى وله كأنما يسترجعـــان ذكريات بطولاتهما الشخصـــية ، وكـــان (على) لا يزال على تردده بين مدخل الكهف وداخله ، و(الزين) حذرًا من احتمال أية مفاجئة يُقدم عليها أحدهما ، فى حين يتابع الشيخ حديثهما بتركيز بالغ قال بعده فى توتر :

— وكأنكما تحدثانى عن الفارس الحاذق .

— ومن يكون الفارس الحاذق يا شيخ ؟

* * *

اصطحب الرجل العجوز كلاًّ من (عبد الحميد) و(الزين) و(على) وهم يسيرون ممسكين بزمام جيادهم فى طرقات المدينة ، ثم سأل (الزين) :

ــ كم عمرك أيها الشيخ العجوز ؟

ــ عمرى أكثر من ستمائة وعشرين عامًا .

قالها بهدوء استفز (على) الذى قال :

ــ ولكنك تبدو أكبر من ذلك بكثير أيها العجوز .

اشتم الرجل سخرية (على) فى حديثه ، وبرغم ذلك قال بنفس الهدوء :

ــ لقد تناولت سائلاً يطيل العمر .

قال (الزين) بسرعة وتلقائية :

ــ ديننا ينفى الخلود .

ــ كل الأديان تنفيه يا ولدى .. لا تترك لتلك المصطلحات التى صُبت فى عقلك تحجر على تفكيرك واستيعابك ..

قلتُ إنه يطيل العمر ولم أقل يمنح الخلود ، هناك فارق .

ــ أعلم أيها العجوز .. اختلط علىّ الأمر .. هل أنت من صنع هذا السائل ؟

كان الشيخ (عبد الحميد) يسير صامتًا يتابع هذه الحوارات ، أجاب العجوز :

ــ كلا .. ولكن تطوّعت لتجربته علىّ .

ــ عالم من مدينتنا صنعه ، وقد صنعه من مخلوقات إلهية .

ــ أعشــاب ؟

كان الموضوع قــد بدأ يجذب اهتمــام (على) و(الشيخ) كثيرًا .. رد الرجل :

ــ نوع من الأعشاب نادرة الوجود ، استخلص منها المادة الأساسية للسائل المخلوط بأنواع أخــرى ، وبعض المواد مستخرجة من حيوانات ونحــل .

سأل الشيخ (عبد الحميد) باهتمام :

ــ ما هى تكويناته بالتحديد ؟

ــ لا أعلم .

كانت عيونهم تحوم فى المكــان أثنــاء السير والمحاورة ، والعديد من الأشياء كانت تبدو غريبة عليهم ولكنهم يتجاوزونها .. ربما لانجذابهم بالحديث مع الرجل العجوز :

ــ لماذا لم يسجل هذا العالم طريقة إعدادها من أجل إفادة الآخرين ؟

ــ لم يعلم أنها نجحت .. فطوال ستة أشهر من متابعة تأثيرها علىّ لاحظ أننى مازلت أتقدم فى العمر ، فرجع إلى تجاربه مرة أخرى دون أن يصل لنتيجة .

سأله (الزين) :

ــ حيرتنى يا شيخ .. كيف إذن أفادتك المادة وهى لم تفلح ؟

كان الجميع قد وصل إلى مكان ممهد ضيق تقل فيه المارة ، تتناثر فى نهايته على مرمى البصر أعمدة كثيرة تجذب الانتباه بأشكالها الغريبة ، فجلس العجوز على صخرة موجهًا كلامه إلى (الزين) :

ــ لم تفلح فى وقتها ، لكنها بدأت مفعولها بعد ما يقرب من سبع سنوات .. وقتها كان العالم قد مات .

قال (على) :

ــ لا شك أنك سعيد بهذا العمر .

ــ ليس سيئًا أن تستمر فى الحياة ، ولكن السيئ أن تكون عجوزًا زاهدًا فى متعها .

ثم شخص ببصره قليلاً قبل أن يكمل :

ــ وأن تدفن أحباءك عبر الأجيال .. لتشعر بالوحدة .

* * *

٥ ـ الصولجـان ..

مثل قائد جيوش الغرب بين يدى إمبراطوره الجديد الذى قال :

ـ ماذا رأيت فى أمر بلاد الشرق يا قائد الجيوش ؟

كان الوزير ـ صديق الإمبراطور ـ يقـف عن يمينـه ، فبـدل قائد الجيوش نظراته بينهما قبل أن يقول :

ـ لو أنه لا بديل عـن الحرب لصالح البلاد فأنا رهن إشارتك سيدى الإمبراطور .

ابتسم الشاب مزهوًا وهـو ينظر بطـرف عين لوزيره ، الذى كادت ابتسامته الخبيثة تشق شفتيه ، قبل أن يستطرد قائد الجيوش سائلاً :

ـ فمتى تأمر بالرحيل يا سيدى ؟

ـ أمّن حدود الدولة وأخلف وراءك من يقدر على ملء غيابك ، وليكن من ستصحبه من الجنود معك فى هذه المهمة على أتم استعداد عند الفجر .

أومأ القائد متفهمًا وتراجع بظهره كى ينصرف ، ولكن استوقفه الإمبراطور قائلاً :

ـ أصحب معك مساعدك الأمين ، وجهز خطة سريعة للقضاء على الملك وأعوانه فى بلاد الشرق .. ثم ابعث لى فور انتهائك منهم لأرسل لك من يعمل على استقرار الأمور وحكم الولاية الجديدة .

صرف وجهه عنه وهو يقول :

ـــ أمر مولاى الإمبراطور .

وخرج من الديوان .

* * *

كان (الزين) غافيًا والآخرون نائمين داخل الكهف عندما تناهى إلى سمعه صوت حوافر تضرب الأرض ، ففتح عينيه على ضوء الصباح البادى ووقف ينظر حتى ظهرت جياد كثيرة عليها رجال ما إن لمحوه حتى أشهروا سيوفهم ، فسحب ســـيفه بدوره وهو يوقظ رفيقيـــه ، فاستيقظ الرجلان المقيدان أيضًا ، ثم سحب بيده الأخرى مشعلاً من النار الموقدة وسط الكهف ، وما لبث أن اقترب القادمون حتى لمح (على) سوطًا فى جراب من تبدو عليه أمارات القيادة ، وصـــاح كل من (زعيتر) ورفيقه وهما يسقطان على ركبة واحدة يحنيان رأسيهما :

ـــ (سانتور) العظيم .

صاح (الزين) بالقادم فى غضب :

ـــ أنت السفاح إذن .

تجاهله (سانتور) وهو يتفحص المكان ويتفحص وجهى رجليه المقيدين ثم يشير بيده لمن يتبعه مباشرة كى يتقدم مترجلاً نحو (زعيتر) ورفيقه ، لولا أن صاح (علىّ) موجهًا سيفه لوجه الرجل :

ـــ لا يقترب أيكم من هنا .

وضع (الزين) يده على سيف (على) يخفضه ، دون أن يشيح ببصره عن (سانتور) الذى قال بصوت رخيم :

ــ شاب حكيم .

ثم وجه حديثه مكملاً لتابعه :

ــ حررهما من القيود .

شرع الرجل ينفذ الأمر فى حين قال الشيخ (عبد الحميد) سائلاً :

ــ ماذا تريد منا أيها الغريب ؟

رد (سانتور) ساخرًا :

ــ الآن أصبحت غريبًا يا شيخ (عبد الحميد) ؟

قطب الشيخ حاجبيه ، وهو يرد :

ــ لم أظنك ستعرفنى أيها السفاح .

ترجل (سانتور) عن حصانه ، فبدا طويلاً عريض المنكبين بلحية منمقة وعينين مكحلتين .. وضع يده على سوطه فى الجراب حول خاصرته متقدمًا نحو الشيخ (عبد الحميد) .. ثم قال وقد اختلطت أنفاسه بأنفاس الشيخ :

ــ لقد تغيرت ملامحك كثيرًا يا (عبد الحميد) ، ولكننى أعرفك لسحبك هذين الصبيين معك فى كل مكان .

كان كلٌّ من (على) و(الزين) متحفزين لأى حركة غـادرة يُقدم عليها السفاح وهو على هذه المقربة من الشيخ ، لكنه بعد جملته المهينة عاد إلى رجاله الذين انضم إليهم (زعيتر) وصاحبه .. ثم صاح آمرًا :

ــ كبّلوا هؤلاء الثلاثة وارفعوهم على جياد لنا .. ثم ابحثوا عن جيادهم وأطلقوها .

تردد (على) فى الدفاع عن نفسه وصاحبيه فوجه نظراته إلى (الزين) والشيخ الذى أومأ لهما بما يعنى « ارضخا فعددهم أكثر منكما بكثير جدًّا » ، وبذا استسلما على مضض وهم يوثقون قيودهم ، ثم أمر (سانتور) الرجل المكلف بتقييد الشيخ :

ــ خفف عنه القيد ، فهو رجل عجوز لن يتحمل خشونة الحبل .

وأخد يقهقه بصوت عالٍ والشمس تلقى بحرارتها فى كل مكان .. ثم اعتلى صهوة جواده .

***

أشار (الزين) بيده ناحية الأعمدة وهو يسأل الرجل العجوز :

ــ ما هذه يا شيخ ؟

نظر الرجل حيث يشير (الزين) وكذا (على) والشيخ (عبد الحميد) :

ــ تقصد الأشكال على الأعمدة ؟ إنها تصميمات هندسية .

(علىّ) :

ــ إنها بديعة .

ــ إنه علم .

الشيخ (عبد الحميد) :

ــ علم الهندسة تقصد ؟ نعرفه ، لكن لم نر مثل هذا من قبل .

ــ اتبعونى .

قالها العجوز وهو ينهض باتجاه الأعمدة ، ثم وقفوا أمام أحدها ينظرون

عن قرب :

ــ هذا يسمى « الشكل ذا الأضلاع الخمسة » .. وذاك يدعى « الشكل ذا الأضلاع الأربعة .. »

قالها الرجل وهو يشير بسبابته إلى النقوش الموجودة على العمود ، فقال (على) :

ــ إن من نحتها لشديد الحرفية .

ــ لم ينحتها بشرى .

قالها العجوز وسكت يتابع ردة فعلهم ، وابتسم عندما أصابت جملته هدفها وبدت الدهشة على وجوههم .. ثم استطرد استجابة لحثهم الصامت على الإدلاء بالمزيد :

ــ نقشتها أدوات وُجدت منذ آلاف السنين عرفها الأجداد أو اخترعوها ، لكنها ضاعت عبر الزمن .. هكذا يقول التاريخ أيها السادة .. اتبعونى .

سار مرة أخرى موليًا ظهره للممر الضيق ، وهم يتبعونه حتى كهف وحيد على ارتفاع منخفض فى جبل صغير الحجم ، وقف أمامه قبل أن يقول :

ــ هذا مكان مقدس ، فلتحذروا تدنيسه .

لم يفهم أيهم مغزى ما قاله بلهجة عميقة ، لكنهم تبعوه إلى الداخل ، وبدا عليهم الانبهار بطلاء الذهب البراق الذى يغطى جدار الكهف ، وأرضيته المصنوعة من مربعات مصقولة على ضفتيها مشاعل أعطت للمكان هيبة وصلت أعماقهم .. وكان العرش :

ــ هذا هو عرش الحكم ، وذلك الصولجان فوقه شاهد على تاريخنا الغابر ، وهو من يحكمنا .

ــ لا شك أن شخصًا مهمًّا فى هذه المدينة ، أليس كذلك ؟

ــ بلى يا بنى .. أنا المسئول عن رعاية الصولجان ، مهمة توارثتها عن أبى وأجدادى .

قال (علىّ) مبديًا ملاحظة :

ــ ولكن لا يوجد حراس على هذا الكهف .

* * *

شعر (الزين) بتوتر الشيخ (عبد الحميد) ، فسأله بحذر :

ــ ومن يكون الفارس الحاذق يا شيخ ؟

تجاهل (عبد الحميد) سؤال (الزين) واتجه بعينيه وجذعه ناحية (زعيتر) ورفيقه :

ــ ما الأداة التى يجيد (سانتور) استخدامها أكثر من غيرها ؟

نظرا لبعضهما فى دهشة من السؤال ، ثم قال أحدهما :

ــ إنه يجيد استخدام السيوف والرماح ويكره الدروع .. لكن أكثر ما يحب استخدامه هو السوط .

ــ هذا ما كنت أخشاه .. إنه هو .

قالها بشىء من اليأس لم يعتده صاحباه ، سأله (على) بتوتر :

ــ ماذا هناك يا شيخنا ؟ أهو بهذه الخطورة ؟

ـ إنه الشخص الأكثر منازلة لى فى المعارك أيام كنت كبير جند جيوش الشرق ، وفى الكثير من هذه المعارك كاد أن يفتك بى لولا القدر الذى اعترضه .. إنه يجيد استخدام كلتا يديه .. السوط بيسراه ، والسيف أو الرمح فى اليد الأخرى .. إنه شخص خطر للغاية .

ـ لا عليك يا شيخ ، سنتمكن من التصدى له .. فأنت أكثر من يعرف قدراتنا .

ـ إلا مع هذا الرجل .. بعض الأشياء تكون موهبة لا تُعلّم ولا تكتسب .. وإنما تُنمى ، وهذا الرجل يستخدم كلتا يديه بمهارة فائقة .

شحنة من التوتر سرت فى الأجساد الطيبة ، وشىء من الشماتة سرت فى الجسدين الشريرين .. قال (علىّ) :

ـ الله معنا يا شيخ ، فهو أقوى من كل (سانتور) على الأرض .

ـ لندعو بذلك يا (على) .. لندعو أن يكون الله معنا دائمًا .

ثم صمت برهة قال بعدها :

ـ من سيتولى الحراسة ؟ أشعر بالتعب وأرغب فى النوم .

رد (الزين) :

ـ سأتولاها أنا يا شيخ .. نم هانئًا ولا تقلق .

قال (علىّ التوحيدى) :

ـ أيقظنى عند منتصف الليل أو عندما تمل فأحل مكانك .

ربت (الزين) على كتف صديقه دون رد ، وافترش (علىّ) عباءته فوق الأرض لينام .

* * *

كانت الأميرة (سولى) تدور حول عرش والدها الجالس بهدوء يتابعها وهى شاردة ، ثم تروح وتجىء عبر الديوان عدة مرات قبل أن يستوقفها مبتسمًا بقوله :

ــ إنه لسعيد الحظ حتمًا .

انتبهت للجملة ، فتوقفت حيث هى تتطلع إلى أبيها قبل أن تسأل :

ــ من هو سعيد الحظ هذا يا جلالة الملك ؟

أجابها بصوت أبوى حنون :

ــ ذلك الذى تجوبين الديوان من أجل قلقك عليه .

احمر وجهها خجلاً لهذا التلميح الماكر ، ثم اتجهت إلى كرسيها بجوار العرش وهى تقول :

ــ لا أعى مقصدك بالتحديد يا أبتِ .

ــ أعنى أنك تشغلين نفسك بالتفكير بى كثيرًا .

ثم مال نحوها وهو يغمز بخباثة جديدة :

ــ أليس كذلك ؟؟

اشتدت حمرة وجنتيها فى حين دخل الحاجب مسرعًا يقول بعجلة :

ــ كبير الجند يطلب مقابلتك لأمر عاجل يا مولاى .

لمح خطورة الأمر فى نبرة الحاجب فأمره :

ــ ليدخل على الفور إذن .

وقامت الأميرة تستأذن فى الانصراف ، لكن طلب منها الملك أن تبقى

لتلقى هذا الأمر الخطير معه .. فاستجابت ، ودخل كبير الجند مهرولاً يسبقه كلامه بتوتر :

ــ جيوش الغرب تتجه نحونا يا مولاى .

ــ مرة أخرى ؟ خلال هذه المدة القصيرة ؟

ــ هذه المرة بضراوة .. (عين الدولة) يتوجس خيفة من هيئة قدومهم المفزعة .

أخذ الملك يتفحص ملامح وجه كبير جنده المتجهم ، والأميرة تدور برأسها عشرات الأسئلة ، لكن الوضع لا يسمح بإلقاء أى منها الآن .. قال الملك :

ــ قم بتدابيرك الأمنية فى مثل هذه الظروف ، كم من الوقت يلزمهم للوصول إلى المدينة ؟

ــ قبل غروب الشمس .

ــ وأظنهم سينتظرون حتى الفجر كى يقتحموا المدينة ، أليس كذلك ؟

ــ كلا يا سيدى ، وإلا لحسبوا الزمن بحيث يصلون عند منتصف الليل فيرتاحون قليلاً ثم يشرعون بالهجوم .. أما طريقة حضورهم فى هذا الوقت تعنى أنهم ينوون الاقتحام مباشرة فور وصولهم .

عاد الملك لتفحصه وتفكيره ، ثم قال :

ــ هل تتوجس شيئًا ؟

أجابه كبير الجند بحزم :

ــ علينا افتراض الأسوأ .

ـــ تدبر الأمر إذن .

أحنى الرجل رأسه وهو يتراجع بظهره قائلاً :

ـــ أمر مولاى الملك .

صاح الملك مناديًا الحاجب ليبعث إليه بكبير العسس ، وبدا أمام الأميرة لحظات قلائل لتخرج ما فى أعماقها من تساؤلات .

* * *

ـــ الصولجان يحمى نفسه يا بنى ، هو ليس بحاجة لحماية من أحد .

قالها الرجل العجوز ردًّا على (علىّ) ، ثم استطرد :

ـــ كما أنه ليس معرضًا للخطر من قبل أى من سكانها ، فهم يقدسونه ويؤمنون بأن وجودهم وسلامتهم من وجود وسلامة هذا الصولجان .

ـــ ما اسم هذه المدينة إذن ؟

ـــ لم يكن لها اسم قط .. ولكننا نطلق عليها (بلاد الأساطير) .

ـــ ما اسمك أنت إذن ؟

ـــ لا نحتاج إلى أسماء .. هذه أمور حديث العهد بها كل البشر ، فما كانت هناك أسماء من قبل .

كاد يجن (علىّ) من حواره مع العجوز بهذا الشكل ، فولاه ظهره ، مما أجبر (الزين) على جذب انتباه الرجل عن رفيقه كى لا يغضب فسأله :

ـــ هل تتميزون بالكرم إذن ؟ نحن بحاجة إلى نوم وراحة .. أشرفت الشمس على المغيب .

ـــ نحن لا نثق فى زائرى النهار ، عليكم الخروج ثم العودة عندما يعم الظلام المكان .

أمسك (علىّ) برأسه وسار بضع خطوات بعيدًا عن الكهف ، فى حين قال الشيخ (عبد الحميد) :

ـــ نشكرك أيها العجوز ، سنفعل كما أوضحت .

ابتسم الرجل وهو يحنى رأسه قائلاً :

ـــ لقد سبقكما صديقكما ، فأسرعا للحاق به .

أدرك كل من (الزين) والشيخ (عبد الحميد) أن الرجل يلمّح لغضب (علىّ) ، فردا على ابتسامته بمثلها وانطلقا إلى حيث جيادهم ليتجهوا نحو أسوار المدينة ، وامتثل (علىّ) صاغرًا لرغبة صديقيه حانقًا على تنفيذهما ما أطلق عليه (هُراء) .

* * *

بدا مخففًا من ملابسه ، مشدودًا من ذراعيه وقدميه بشكل رأسى إلى عمودين متجاورين ، رقبته مطأطأة حتى كاد عنقه من الخلف يلامس سقف المكان .. كان وضعًا غير مريح بالمرة ، ومن تحته قدر كبيرة تغلى بالماء تتصاعد أبخرته عليه فى وضعيته هذه .. وسيلة تعذيب جهنمية فى بساطتها ، بعد برهة سمع أنين تصدر منه تمتمة ، فأصاخ السمع مخترقًا آلامه وصوت الغليان ليميز صوت (علىّ التوحيدى) :

ـــ هل .. أنت .. على ما يرام .. يا (زين) ؟

جاء الصوت من خلفه ، فرد بصوت لا يقل وهنًا :

ــ لا أظننى .. كذلك .. يا (علىّ) .

ــ أين .. الشيخ (عبد الحميد) ؟

نقّلا بصريهما فى المكان ببطء بحثًا عنه فلم يجدا سوى جدران وأرضية وصخور متناثرة وبقايا دماء وحبال مهترئة ، ثم دخل أحد رجال (سانتور) يقـــول :

ــ (سانتور) العظيم يسألكما الدخول .

كان الرجل يدور بينهما يتفحص وجهيهما .. رد (الزين) :

ــ وهل نملك أن نأبى ؟ فليدخل (سانتورك) العظيم .

واكتفى ، فابتسم الرجل وهم بالخروج من المكان ، ولكن استطرد (الزين) قائلاً :

ــ أيها الوغد .

توقف الرجل واستدار ناحية (الزين) ورأى ابتسامة واهنة على ركن شفته المنهكة فعاد مكملاً طريقه بتجاهل ..

لحظات ودخل (سانتور) يمسك سوطه وخلفه رجلان ، وبدأ الكلام :

ــ كيف تشعران أيها الفارسان الهمامان ؟

رد (علىّ) بسرعة :

ــ بأفضل منك أيها السفاح .

ابتسم (سانتور) ، ثم ضحك مجلجلاً وقال :

ــ وأنت أيها الفارس الملك المنتظر ؟

شعر (الزين) بدهشة حقيقية لجملة السفاح .. ثم شعر بقوة الغضب تسرى فيه دفعة واحدة ونسى كل آلامه وهو يسأل :

ــ أين الشيخ (عبد الحميد) أيها الوقح ؟ ماذا ألمّ به ؟

سرت نفس القوة بعروق (علىّ) لما انتبه لمقولة صديقه ، وقطّب حاجبيه مصغيًا السمع لما سيجيب به (سانتور) الذى قال :

ــ لا تقلق عليه يا فتى .. فهو ضيفى معززًا .

ازداد انعقاد حاجبى (علىّ) ، و(الزين) يقول :

ــ أمثلما نحن معززان هنا ؟

قهقه (سانتور) ، وهو يجيب :

ــ بل خير من ذلك .. فالفارس (عبد الحميد) له عندى مكانة خاصة ، مكانة تفوق ما تتصوره يا فتى .

شعر (الزين) وصديقه بالقلق لهـــذا الرد ، وكاد (الزين) يكمل استفساراته ، لكن انقلبت سحنة السفاح فجأة وقطب حاجبيه بغضب واقترب من جسد (الزين) المعلق ، وهو يسأله :

ــ تحت أى أرض يوجد السائل الأسود أيها الشاب ؟

* * *

الفاكهة مدلاة من الأشجار ، والأميرة (سولى) تجوب تحتها تتبعها وصيفتها بقلق .. مدت الأميرة يدها وقطفت ثمرة نضجت ، أخذت تقضم منها وهى شاردة تحملق فى لون الثمرة حينًا وفى الأرض حينًا .. أخذت تفكر فى حوار والدها معها ، هل يعنى ما قال حقًّا ؟ أم إنه يلمّح إلى شىء

ما ؟ هل لاحظ إعجابها بـ (الزين) ؟ هل لاحظ (الزين) نفسه هذا الإعجاب ؟ نظراتها له .. متابعتها لكلامه ، تداعت أفكارها إلى الحرب الموشكة حتى صدر فى المكان صوت زمجرة ، فانفلتت الثمرة من يدها مع صرخة جزعة أطلقتها الوصيفة ، اتجهت الأميرة ببصرها نحو الصوت لتجد ذئبًا رماديًا بارزة أنيابه ينظر لها بعينين لامعتين ، وضعت يدها على فمها لتكتم صرخة تكاد تفلت منها ، بينما الذئب يقترب بهدوء ، ثم قرر الارتكاز على ركبتيه استعدادًا للقفز ، وفجأة أصابه سهم تلاه آخر أعجزه عن الحراك ، والأميرة تحملق فى الدماء السائلة حتى سمعت صوت رجل :

ــ هل أنت بخير يا مولاتى ؟

استدارت باتجاه محدثها لتجد جنديًا يمسك النشابة بيمناه وسهمًا حرًا فى اليد الأخرى ، أومأت له برأسها فابتسم الجندى ، وهو يقول :

ــ يبدو أن وصيفتك ليست بالشجاعة التى تمتلكينها .

كان يشير بسهمه تجاه الوصيفة المستندة على جذع شجرة تذرف دموعها ، والجندى يتجه إلى الذئب يتحقق من موته والأميرة تتابعه بعينيها حتى عاد إليها يطمئنها :

ــ لقــد مات .. أرسلنى الملك ضمن مجموعة أخرى للبحث عنك ، فهلمى بنا إليه كى يطمئن .

اتجهت الأميرة تُعين وصيفتها على النهوض وسارتا مع الجندى باتجاه القصر ، وما إن وقع بصر أبيها عليها حتى سألها بلهفة :

ــ أين كنتِ ؟ أنت تعرفين أننا على مشارف حرب وتخرجين من القصر هكذا دون اصطحاب جنود الحراسة ؟

لم ترد الأميرة وهى مطأطئة رأسها فاتجه الملك ناحيتها ورفع رأسها ليرى دموعًا تزحف من عينيها ، فسألها بتأثر :

ـــ ماذا بك ؟

ـــ لقد كاد يفترسنا ذئب ، لولا أن قتله الجندى الذى وجدنا .

ضمها إلى صدره وهو يقول :

لا بأس .. لا بأس سنكرم هذا الجندى لإنقاذه إياك ، بل سنكرم كل الجنود احتفاءً بسلامتك .. ولكن لا تقلقينى عليك مرة أخرى ، يكفينى ما أحمل من أعباء .

سحبتْ نفسها من صدر أبيها ونظرت إليه من خلف دموعها ، ثم أومأت برأسها إيجابًا وانصرفت .

ـــ أين كبير الجند ؟

* * *

٦ ـ السـائل الأسـود ..

استند الثلاثة إلى صخرة ضخمة قبيل الغروب حتى يجن الليل فيتمكنوا من دخول المدينة العجيبة ليبيتوا بها كما أخبرهم حارس الصولجان ، بينما الجياد معقود حبالها فى بعضها .. قال (علىّ) :

ــ ما أخبار كتفك يا شيخ ؟

تحسس الشيخ (عبد الحميد) كتفه اليمنى ، وهو يقول :

ــ بخير يا (علىّ) ، إن الضمادة هوّن الأمر كثيرًا .

ــ لا أصدق أننا أفلتنا من (سانتور) ، إنه كوحوش الأساطير .

ــ إننى حى حتى الآن لأن رجلاً تلقى رمية سهم بدلاً عنى منذ سنوات بعيدة .

قالها الشيخ (عبد الحميد) وهو شارد بعينيه فى اتجاه المدينة ، ثم استطرد :

ــ هذا الرجل كان والد (سانتور) .

اتسعت عينا (الزين) و(علىّ) وهما يحدقان فى الشيخ الذى التفت ناحيتهما وبدأ فى الضحك للتعبير المرتسم على وجهيهما ، ثم قال :

ــ ما بكما ، أهكذا تستقبلان الأمور ؟

شعرا بالخجل وعدلا من وضع عينيهما ، ثم قال (الزين) :

ــ معذرة يا شيخ ، ولكن جملتك ذكرتنا بجملة قالها السفاح بينما كنا معلقين يغلى من تحتنا قدر الماء .

ـ ماذا قال يا (زين) ؟

ـ لما سألناه عنك قال إنك معزز لأن لك عنده مكانة خاصة ، ولم نفهم الجملة سوى الآن ، هل كان ينوى الانتقام لأبيه ؟

ابتسم الشيخ (عبد الحميد) وبدأ يحكى :

ـ كنا فى معركة مع جيش أقاصى الشرق دفاعًا عن بلادنا ، لم تكن وقتها بهذه المساحة الشاسعة ، كانت هناك دولة صغيرة على حدودنا - وقتها ـ تساندنا خشية أن ينتصر علينا جيش العدو فيزحف عليهم بعدها .. كان قائد جيش هذه الدولة الصديقة هو والد (سانتور) ، كان فارسًا شجاعًا وكثير الإعجاب بمهارتى .. لمح أثناء المعركة وغدًا من جيش العدو يهم بإطلاق سهم على ظهرى بينما كنت منهمكًا فى قتال ثلاثة منهم بسيفى ، فلم يجد سوى أن يلقى بنفسه ـ بعد أن ترك سيفه مغمدًا فى قلب أحدهم ـ ليحول بينى وبين السهم الذى أصابه فى مقتل .. ولما انتبهت للأمر بعد فراغى ممن أقاتلهم همس لى بفخر أنه أنقذ فارسًا يتفوق عليه فى مهاراته .

صمت الشيخ قليلاً ، وضوء الشمس الباقى يتبعهم ، ثم أكمل :

ـ عرفت عنه فيما بعد كم كان شجاعًا .. وأنه كان أعسر اشتهر بغمد السيف فى قلب عدوه مباشرة بعد مبارزة قصيرة يستخدم فيها الدرع أكثر من السيف بمهارة لافتة .

خرج (علىّ) من انبهاره وسأل الشيخ :

ـ ورث (سانتور) مهارة أبيه إذن ، وأضاف إليها مهارات أخرى . أليس كذلك يا شيخ ؟

ــ بلى يا (علىّ) ، تلقى (سانتور) تدريبات فائقة المهارة أثناء كان جنديًا فى جيش الدولة التى حكى عنهـــا (زعيتر) على أيدى مقاتل من الغرب اشتهر بمهارته فى استخدام السوط ، جذبته مهارة (سانتور) المتفوقة على زملائه ، والتى كانت نتاج تدريبات والده له ، فخصه بتدريبات شاقة علّمه فيها كل خبرته عن فنون استخدام السوط ، ولنضف مهارته السابقة فى استخدام الدرع والسيف من أبيه ، وأيضًا قدرته على استخدام كلتا يديه .

أكمل (الزين) :

ــ وقلب شر ناقم ، وعقل شيطان .

ابتسم الشيخ لتعابير الاشمئزاز على وجه (الزين) ، ثم قال :

ــ ولهذا سُمى بالفارس الحاذق ، فهو لا يقع فى فخاخ الآخرين بسهولة ، وإن حدث فإنه يتمكن من إنقاذ نفسه بسرعة .. أو لم يحن وقت دخول مدينة الأعاجيب هذه ؟

* * *

أى سائل تعنى ؟

أمسك (سانتور) بشعر (علىّ) وجذبه بقسوة ، ثم قال بشراسة :

ــ يمكننى تمزيق أطرافك على مهل حتى تخبرنى بما أريد ، فلا داعى للمماطلة أو التحاذق .

صاح (الزين) :

ــ سأجعل منك نُتفًا صغيرة لو آذيته أو الشيخ (عبد الحميد) .. نحن لا نعرف عما تتحدث .

ــ السائل الأسود الذى يحترق بسرعة خرافية فور إشعاله ليصل فى لمح البصر من أوله إلى آخره ولو على مسيرة يومين .. أين يوجد هذا السائل ؟

كان رجل (سانتور) يقف على مدخل المكان بينمـــا يصيح سيده فى الأسيرين عندما ميز بأذنه حركة خافتة من خلفه ، فاستدار شاهرًا سيفه ليجد الشيخ (عبد الحميد) يزحف باتجاهه متمتمًا :

ــ إنهما لا يعرفان شيئًا عن الأمر يا (ســـانتور) ، لا شـــأن لهما بهذا السائل .

تردد الحارس بين سيده والشيخ لا يدرى ما يفعل حتى اقترب (سانتور) يعين الشيخ على النهوض بقسوة ويصيح به مقربًا أنفاسه من وجهه :

ــ أخبرنى أنت إذن أيها العالم الفذ .

أجاب الشيخ (عبد الحميد) بإنهـــاك :

ــ ولا أنا أدرى أين يوجد هذا السائل .

ــ ألقاه (سانتور) بعنف ليصطدم بالجدار ، و(الزين) يحاول التخلص عبثًا من قيوده وكذا (على) الذى صاح :

ــ ما هذه الحماقة أيها الوغد ، ألا تعرف كيف تعامل شيخًا ؟

أخرج (السفاح) سيفه وخدش به فخذ (علىّ) لتزيد من تمزق ملابسه ، ولتنـــزف دماؤه بهيئة خيط أحمر رفيع دون أن يئن فيما اصطكت أسنانه بشدة ، وقال :

ــ ماذا نتوقع من سفاح غير هذه الأفعال ؟

ــ إنك توقد نار غضبى أكثر .

رد (الزين) بسرعة :

ــ لأنك لا تستطيع إيذاء سوى العجائز والمقيدين .

ظل (سانتور) على غضبه يحدق فى (الزين) بعض الوقت وهو يقبض على سيفه بقوة أكبر ، ثم بدأت تنفك تجاعيد غضبه رويدًا رويدًا ، وبدأ جسده فى الاسترخاء وهو يبتسم قائلاً :

ــ أعلم أننى أكثر منك مهارة أيها الفتى ، ولكنى لن أنزع قيودك رغم محاولتك الذكية .. فأنا لن أضيع وقتى فى صراع سخيف مع شاب متحمس .

ثم اتجه ببصره إلى الشيخ (عبد الحميد) الذى كان يتابع الموقف بوهن ، وسأله :

ــ أين الزيت الأسود يا (عبد الحميد) ؟ تحت أى أرض يوجد ؟

وأجابه الشيخ بنظرات هادئة ، وصمت مطبق .

* * *

دلف الشيخ (عبد الحميد) و(الزين) و(علىّ) مدينة الأساطير ليجدوا قناديل كثيرة ممتدة على جانبى الطريق الممهد وكل منهم تدور عيناه فى المكان بحثًا عن العجوز حارس الصولجان ، لكن هذه المرة لاحظوا نظرات الناس المشدوهين متجهة نحوهم ، ثم اقترب أحدهم مبتسمًا :

ــ مرحبًا بالفرسان .. هل تبحثون عن مكان للمبيت ؟

لم يكن الأمر بالتجاهل الذى لاقوه نهارًا قط ، فأثار هذا حيرتهم وريبتهم معًا .. رد (الزين) :

ـــ نبحث عن صديقنا حارس الصولجان أيها الرجل الطيب .

ـــ هو عند الكهف المقدس أيها الغريب الطيب ، سأرشدكم إليه .

كانوا فى حاجة لمرشد فى ذلك الظلام ، ثم وصلا بعد فترة حيث يرقد الشيخ أمام الكهف ، فرحب بهم والمرشد يقول :

ـــ لقد جذبت أضواء القناديل ثلاثة من الفرسان أيها الحارس أبدا ، فهل ترى منهم الفارس المنتظر ؟

ـــ سنرى يا صديقى ، سيظهر كل شىء فى أوانه .

قالها الشيخ بهدوئه الذى جعل (علىّ) يسترجع حوارات النهار ويعود لشعوره بالاستفزاز من هذا الرجل ، أخرجه من خواطره (الزين) بعدما رحل المرشد :

ـــ ماذا يقصد ذلك الرجل بما قال أيها الحارس أبدا ؟

نظر (علىّ) إلى (الزين) بلوم لتكراره جملة المرشد للحارس غير المفهومة لهم ، لكن لم يلحظ (الزين) هذه النظرة فى حين أجاب الرجل :

ـــ إننا ننتظر الفارس الغائب منذ أعوام نضىء له القناديل ليلاً كى يهتدى إلى الطريق لنا هنا .. هنا بلاده أبدا .

لم يتمالك (علىّ) نفسه فقال بسخريته الغاضبة :

ـــ هل كلمة (أبدا) هذه عادة ليلية عندكم ؟

رد الحارس العجوز بهدوئه :

ــ لا تسخر منا ومن كلماتنا أيها الشاب ، فهذا لا يليق بفارس .

علّق الشيخ (عبد الحميد) مبتسمًا :

ــ لا أظن (علىّ) هو الفارس الغائب إذن أيها الحارس .

نظر إليه (علىّ) معاتبًا بصمت بينما ضحك (الزين) ، والعجوز يقول :

ــ نعم أيها الشيخ الطيب ، أظن الفارس الغائب سيأتى فى الوقت المناسب .

جذبت كلمة (الطيب) ــ المتكررة كثيرًا هــذا المساء أيضًا ــ انتباه (علىّ) ، لكنه آثر تمالك نفسه هذه المرة ، قال (الزين) :

ــ من هو هذا الفارس ، ولماذا غاب ؟

ــ إننا لا نعرف كيف هو شكله ، لكننا نعرف أنه سيأتى أيها الشاب .

ركض عبرهم أحد سكان المدينة وهو يصيح :

ــ لقد سُرقت صخرة البئر .. سُرقت صخرة البئر .

فكرر الحارس جملة الراكض بجزع :

ــ يا إلهى ، لقد سُرقت صخرة البئر .

وكان هذا أكثر ما لاقاه (علىّ) ــ حتى الآن ــ مــن جنون أهل هذا المكان .

* * *

ضربت حوافر جياد جيوش الغرب الأرض باتجاه بلاد الشرق ، وفى

وسطها كان قائدهم يقول لمعاونه بأسى :

ـ لستُ سعيدًا بهذه المهمة ، إن القوم لم يعادونا ، بل وأظهروا سلامة نواياهم ، فكيف نحاربهم ؟!

ـ إنها أوامر الإمبراطور يا عظمة القائد .

ـ ما كان يجب أن أنصاع بهذه السهولة ، كان لابد من إقناعه بالعدول عن هذا القرار المتسرع .

قال معاونه بشيء من العصبية :

ـ قائد بلادنا لابد أن يكون حكيمًا يا عظمة القائد ، وهذا القرار جاء بعد حكمة وتروٍّ .

صاح القائد بعصبية :

ـ أى تروٍّ هذا الذى اتخذه حاكم لم يمض على حكمه يوم واحد ؟

ثم صاح بصوت أعلى بجنوده :

ـ قفوا جميعًا يا جنود إمبراطورية الغرب .

بدأ كل منهم يجذب لجام جواده انصياعًا لأوامر القائد ، فى حين سحب المساعد سيفه بسرعة وثبته على رقبة قائد الجيوش ، وهو يقول بغضب :

ـ أمرنى جلالة الإمبراطور أن أتولى قيادة الجيش لو أنك تقاعست عن تنفيذ أوامره ، وأن أعيدك إليه مكبلاً ..

فاعذرنى أيها القائد .. السابق .

لم يتمكن القائد أن يدير رأسه ناحية معاونه بسبب السيف المثبت على عنقه خشية أن يصيبه ، فقال من موضعه :

ـــ لهذا كان قرار الإمبراطور مترويًا يا معاون القائد ، أليس كذلك ؟

تجاهل المساعد الرد على هذا السؤال ، وأمر رجلين من أقرب الجنود إليه بتقييد القائد السابق وتجريده من أدواته القتالية والدرع ، وأرسل به خمسة من الجنود ناحية بلاد الغرب ..

إلى الإمبراطور مباشرة .

* * *

تغمر الحرارة ومياه العرق كلاًّ من (الزين) و(علىّ) ، بينما الشيخ (عبد الحميد) ملقى بجوار الحائط و(سانتور) يحمـــل ســـوطه ـ الذى أبدله مكان السيف ـ وثبت يده الأخرى على خصره رافعًا رأسه وصدره قائلاً :

ـــ إن هذا السائل سيمكننى من فعل الكثير يا (عبد الحميد) .. سيكون من اليسير علىَّ خلع كل الحكام من بلادهم ـ بعـــد إثارة بعض القلاقل بها وبأمنها ـ وضم هذه البلاد جميعًا لدولة بطول الأرض وعرضها تحمل اسمى ، وتنصاع لحكمى .

بدأ يدور فى المكان وهو يضم أصابعه الحرة مستطردًا :

ـــ سأحكم العالم بهذه القبضة ، وأوزع خيرات الأرض على الناس أجمعين .

قال الشيخ وهو يتفحص (سانتور) بملابسه الخضراء وبشرته البيضاء ، والحُمرة المحيطة بعينيه المكحلتين ، وشعره المصفف على هيئة خصلات متساوية يتعدى طولها كتفيه بقليل :

ـــ إن من له مثل قلبك وعقلك لا يمكن أن نترك له حكم البشر يا (سانتور) ، الناس فى حاجة إلى العدل والرحمة لا إلى أمثالك من السفاحين .

أصاب (سانتور) كتف الشيخ بحركة مفاجئة من سوطه تركت فيه ألمًا وجرحًا صغيرًا ، قال بعدها :

ـــ لا تثر حفيظتى أيها العجوز ، أخبرنى بمكان الزيت فأتركك وهذين لحال سبيلكم .

ـــ حتى لو كنت على دراية بمكانه فلن أخبر به وغدًا مثلك .

ـــ أنت لا تتعلم من أخطائك إذن .

وأصابه مرة أخرى فى نفس الكتف بالسوط ، وازداد ألم الشيخ ، بينما كان الإنهاك قد نال كثيرًا من الشابين المعلقين ..

وخرج (سانتور) آمرًا حارسه بالتيقظ والحفاظ على النيران مشتعلة تحت القدر حتى يرجع .

* * *

سأل الشيخ (عبد الحميد) حارس الصولجان باهتمام :

ـــ وماذا عن تلك الصخرة أيها الحارس ؟

ـــ إنها غطاء البئر الذى يبيت فوقها بعد نفـــادها فى نهاية النهار ، فنستيقظ صباحًا لنجدها وقد امتلأت بالماء من جديد ، ومن دون غطاء البئر لن تمتلئ البئر مرة أخرى .

لانت ملامح الشيخ (عبد الحميد) ، و(علىّ) يزداد توترًا من كبته لما يجيش بنفسه حيال هذا الرجل وهذه المدينة ، ولم يعلق (الزين) على الأمر وإن تابع الجميع خطوات الحارس الذى سار فى اتجاه لم يحتاجوا جهدًا ليعرفوا أنه يؤدى إلى البئر ، حتى وصلوا ليجدوا أناسًا كثيرين ملتفين حول هذه البئر ، بدأ الحارس يخترق الصفوف يتبعه (الزين) بفضول فى حين وقف الشيخ و(على) يتابعان ما يحدث .. بعد فترة جاءهم (الزين) يقول باهتمام :

ــ إن العرافة تجلس بجوار البئر وقد أخبرتهم أن السارق غريب عن المكان .

صاح (علىّ) :

ــ تبًا ، نحن الأغراب الوحيدون هنا .. سيفتكون بنا الآن .

اتجهت أبصار الناس فجأة إليهم والحارس يقترب منهم ، فقال (علىّ) هامسًا لرفيقيه :

ــ هل نركض أم نخرج سيوفنا الآن ؟

قال الحارس صائحًا لهم قبل أن يجد (علىّ) ردًا :

ــ إن العرافة تخبرنا بأن الفارس الغائب سيجلب لنا الصخرة الآن .

ثم سكت وهو يستمر فى الإقبال نحوهم حتى وصل فقال :

ــ وأن هذا الفارس هو أحدكم .

اندهش الثلاثة قبل أن يسأله (علىّ) :

ـــ ولماذا لا يكون من سرق الصخرة هو أحدنا ؟

ـــ لأننا ـ أيها الشاب ـ رافقناكم منذ دخولكم المدينة وحتى الآن ، كما أنكم لم تتجهوا ناحية البئر ولا تعرفون مكانها ، ولا تعلمون أهمية هذه الصخرة بالنسبة لنا لتحرمونا منها .

سأله (الزين) :

ـــ إذن فكيف يسرق الصخرة غريب . لابد أن يكون أحد سكان هذه المدينة ليكون عالمًا بمكان البئر وأهمية الصخرة بالنسبة لكم .

قطب حارس الصولجان جبينه لمنطق (الزين) ، ولكنه ـ برغم ذلك ـ قال :

ـــ إن العرافة لا تخطئ أبدًا .. من سرق الصخرة غريب عنا ، فما كان ليفعلها أى منا أبدًا .

قال الشيخ (عبد الحميد) :

ـــ من منا الفارس الغائب إذن ؟

كان القوم يتابعون هذا الحوار الدائر بين الحارس والأغراب ، لكن بعد السؤال الذى أطلقه الشيخ اتجهت كل العيون إلى واحد فقط .

واحد من الأغراب .

* * *

انتقى القائد الجديد لجيوش الغرب أحد الجنود المتميزين ، بعد أن أمرهم جميعًا بمعاودة الزحف نحو بلاد الشرق .. قال له :

ــ أنت الآن معاونى ، ستتعهد بالإخلاص لى من أجل الوطن والإمبراطور .

قال الجندى بسعادة :

ــ أمرك يا عظمة القائد ، فأنا فداء الوطن والإمبراطور .

ــ سيحاصر بعض الجنود بقيادتى مملكة الشرق من خارج أسوارها ، بينما يقتحمها عدد آخر بقيادتك يُرهبون سكانها ، فيأسرون من يأسرون ويقتلون من يأبى حتى تعم الفوضى ، بعدها تأتى بنفسك لتتولى قيادة بعض من الجنود هنــا وأصحب أنا بعضــهم إلى قصر الملك مباشرة لأحكم سيطرتى على المدينة .. هل استوعبت ؟

ــ نعم سيدى .

ــ عظيم .. سنرسل بعدها من يبشر جلالة الإمبراطور ليبعث من يحكم ولايته الجديدة ، وحتى يصل الرسول سنبقى فيها .

قال المعاون مبتسمًا :

ــ خطة بسيطة يا عظمة القائد .

صاح به القائد :

ــ لا تستهن بأى عدو مهما بدا ضعيفًا ، ومهما بدوت محنكًا .. هل تفهم ؟

أجاب الرجل بارتباك :

ــ أفهم سيدى .. أفهم جيدًا .

ــ انطلق إلى المقدمة إذن .

* * *

كان حارس (سانتور) يدور حول (الزين) و(علىّ) المعلقين مبتسمًا يلفظ بعض كلمات الشماتة ، وهو بين الحين والحين يلقى نظرة على نار القدر ليتأكد من استمرار لهيبها ، حتى سمع حركة فى الخارج فتجهم وسحب سيفه بسرعة متوخيًا الحذر ونظر باتجاه المدخل المظلم ليفاجأ بحجرة تصيب وجهه ، فسقط على ظهره بينما شحذ الموقف انتباه (الزين) و(علىّ) المنهكين ، والشيخ المتألم بجوار الجدار ، اتجهت عيون الجميع ناحية المدخل ليروا القادم الذى بدا شبحًا فى الظلام حتى اخترق المدخل وتظهر ملامحه ، فبدت ابتسامة واهنة على شفاه (الزين) و(على) بينما تهللت أسارير الشيخ (عبد الحميد) ، وهو يقول :

ــ ما رأيك فى هذه الحرارة يا (بقدونسى) ، أليست أفضل من الجليد الذى كنا به قديمًا ؟

اتجه (البقدونسي) ناحية الحارس المصاب يركله فى فكه وهو يدور باحثًا عن قيد ، قائلاً للشيخ :

ــ بل هى أفضل من الأشواك التى رقدنا عليها يومًا تحت الشمس يا شيخ (عبد الحميد) .

قال (الزين) بوهن للرجل :

ــ هلم إلىّ ، فك قيدى وقيّده به .

ابتسم الرجل وهو ينظر لــ (الزين) قائلاً :

ــ كيف أصعد إليك إذن أيها الذكى ؟

ثم نظر بداخل القدر وهو يقول ساخرًا :

ــ ماذا تطهون اليوم ؟ فأنا جائع بالفعل .

* * *

٧ ـ المعلم (خازن الشيبى) ..

رفع المعاون الجديد لقائد جيوش الغرب يده إشارة بالتوقف ، فاتجه القائد ناحيته من وسط الصفوف يسأله عن السبب فرد الرجل وهو يشير بامتداد ذراعه :

ــ هنــاك .

نظر القائد حيث يشير ، ثم قال :

ــ سأصحب عشرة جنود لنرى من هؤلاء ، وابق متحفزًا مع الباقين .

ــ أمرك يا عظمة القائد .

أشار القائد لعدد من الجنود وسار أمامهم حتى وصل إلى رجال كُثر يقارب عددهم عدد جيش ، وكانوا متسلحين يمتطون جيادًا ويرتدون ملابس خضراء .. تقدم أحدهم للقائد يسأله بتعالٍ :

ــ هل تعرفنى يا هذا ؟

ــ نعم أعرفك ، أنت من أحضر لنا الخرائط والكتب من بلاد الشرق وأنذرنا بقيام حرب .

ــ وأنتم من خُدعتم ليتفادوا الحرب وقتها حتى يتموا استعداداتهم لها .

ــ لم يخدعونا ، نحن فى طريقنا لغزوهم .

ــ أطلب منك معروفًا مقابل هذا إذن .

ــ لا أدرى إن كان علىَّ تلبية ما تريد .

قهقه (سانتور) طويلاً قبل أن يقول :

ــ ابعث لى بقائدك إذن فهو يدرى ما عليه فعله .

أثرت الكلمة فى نفس القائد وقال بعصبية :

ــ أنا القائد هنا وأنا أدرى بما علىَّ فعله .

احتدت ملامح (سانتور) وقال بصرامة :

ــ فر منى ثلاثة رجـــال مـــن أهل بلاد الشرق ـ عجوز وشابان ـ أريدهم بأى ثمن .

قال القائد بحزم أكبر :

ــ هذه أمور قُطّاع طرق لا تليق بجيش إمبراطور الغرب ، أخل لنا الطريق كى نمر .

ــ أنت لا تريدها حربًا بيننا الآن .. أليس كذلك ؟

ــ كيف تجرؤ أيها الوغد ، فأنا قائد جيوش دولة عظمى وأنت لص تافه لا يليق بى التحدث معه فضلاً عن إجراء مساومة سخيفة هنا .

ــ هذا التافه أنقذ بلادك من غزو محقق ، وعليك أن تحمد لى هذا أيها القائد المدعى .. كما أنه لا تبدو عليك أمارات القيادة قط .

جُرحٌ آخر فى نفس القائد الذى أخرج سيفه ليشهره لأعلى ، لكن سوط (سانتور) لقفه قبل أن يكمل رحلته وألقى به بعيدًا وصاح به :

ــ أنت لم تعِ ما كنت ستقدم عليه ، إن عاديتنا فأنت الخاسر حتمًا ، أنت لا تدرى من يكون هؤلاء الذين معى .. إنهم ليسوا مرفهين يحملون سيوفًا تبرق وينتمون لوطن كجنودك الخُرقاء ، بل هم أجساد تربت على الذل وتعرفت القهـــر ، ثم ذاقت بعـــد ذلك النعيم على يدىّ أنا ،

سيسحقون صبيانك بإشارة منى فى لحظات قبل حتى أن يتمكن أيهم من إخراج سيفه الهش .

نجح (سانتور) فى إثارة توتر القائد وزعزعة ثقته بجنوده ، فقال بعصبية أقل :

ــ ماذا تريد إذن ؟ إنك تعوقنى عن مهمتى .

ــ لا أطلب الكثير ، لكن حينما تحكم قبضتك على مملكة الشرق سأتولى أمر ثلاثة من رجالها أحتاجهم لأمر يهمنى .

ثم استطرد :

ــ ولا تنس بعض خيرات الملك التى تعين هؤلاء الرجال على الصمود قليلاً أمام قسوة الحياة .

قالها مشيرًا باتجاه رجاله وأخذ يقهقه وحده عاليًا للدعابة التى ألقاها ، فى حين امتلأ وجه قائد الجيوش بالتجهم .

* * *

أخذت كل العيون تحملق فى وجه الشيخ (عبد الحميد) الذى ابتسم ، وهو يقول :

ــ كنت أتوقع هذا .

سأله (علىّ) :

ــ أكنت تعرف أنك الفارس الغائب يا شيخ ؟ هل كنت فى هذه البلاد من قبل ؟

ــ كلا لم أطأها قبل اليوم ، ولكنها أسطورهم يا (علىّ) .. لو أن

الفارس الغائب اختفى منذ سنين عديدة فلابد أنه فى مثل عمرى الآن .

قال (الزين) :

ــ لكن عمر هذا الرجل يتجاوز الستمائة عام ، وربما غاب هذا الفارس منذ ثلاثمائة عام أو أربعمائة .

ــ الأسطورة تعم هذه المدينة كلها يا (زين) ، أما السن فيخص الحارس وحده ، هذا يعنى أن الأعوام التى مرت على اختفاء الفارس إنما هى بتقديراتنا نحن لا تقديرات الحارس العجوز .

تمتم (علىّ) :

ــ لو أنه فعلاً بهذا العمر .

صاحت العرافة الشابة بصوت أنثوى رقيق بادٍ لمسامع الجمع :

ــ هلم أيها الفارس العائد ، فبلاد أخرى تحتاج إليك الآن .

سألها (علىّ) بسرعة واستهانة :

ــ أية بلاد تلك أيتها الدجالة ؟

نظرت إلى عينيه مباشرة وقالت بصرامة قاسية :

ــ أنا عرافة أيها المحارب ، إن عدم احترام الآخرين ليس من شيم الفرسان .

ثم أردف :

ــ بلاد الشرق فى حاجة إليكم .. قبل بزوغ الفجر .

* * *

انفرد الشيخ (عبد الحميد) و(على التوحيدى) و(الزين ابن الجبال) بمعزل عن سكان مدينة الأساطير يتشاورون فى أمر إعادة الصخرة المفقودة لأهل المدينة ، سأل (الزين) :

ــ لِمَ نساعدهم يا شيخ ونبحث لهم عن الصخرة ؟

ــ يا ولدى هم يقصدوننا لنعاونهم ، ولا تنس أنهم كادوا يستضيفوننا لقضاء ليلتنا بينهم بدلاً من قضائها فى الخلاء .

قال (علىّ) :

ــ لكن يا شيخ هذه ليست معاونة منا بل إننا سنقوم بما يجب عليهم فعله ، هذه صخرتهم ومدينتهم وعليهم إيجادها بأنفسهم .

ــ أما كنت لتفعل يا (علىّ) لو أن ضعيفًا أو قليل الحيلة طلبك لمساعدته ؟

نكس (علىّ) رأسه بينما قال (الزين) من جديد :

ــ إذن كيف ستجد الصخرة يا شيخ ؟ إنك فارسهم الآن وأنت من عليه إيجادها .

ــ سوف نبحث ثلاثتنا عنها ، وسنبدأ بالبحث خارج أسوار المدينة بحثًا عن أى أثر للهارب بالقرب منها .. لكن علينا أن ننجز هذا الأمر بسرعة كى نعود إلى بلادنا قبل الفجر بوقت كافٍ .

أومأ الصديقان فاتجـــه الشيخ إلى حارس الصولجان وأهله :

ــ سوف أجد هذه الصخرة يا سادة عن طريق هذين الشابين ، فهما من سيرشداننى إلى مكانها .

قال الحارس :

ــ لا بأس أيها الشيخ الطيب ، إنها مهمتك وعليك قضاؤها بطريقتك .

قالها وهو يومئ برأسه دون معنى ، قال الشيخ من جديد :

ــ وسنحتاج إلى جياد قوية لنصل سريعًا إلى وطننا .

أومأ الكهل من جديد ، فابتسم الشيخ وأشار لرفيقيه متجهين إلى سور المدينة تتبعهم عيون السكان جميعًا .

* * *

استعان (البقدونسى) بملابس الحارس المغشى عليه وأمسك بالقدر يفرغ ماءها على الشعلة التى كانت توقدها ، ثم قلبها وفرش الملابس على قعرها الذى أصبح قمتها الآن ، وصعد عليها يفك قيود (الزين) و(علىّ) معلّقًا :

ــ يمكنكم أكل قدمىَّ مشويتين بعد أن أنزل ، فهذا القدر ساخن للغاية .

قال (عبد الحميد) :

ــ كف قليلاً عن سخريتك هذه وهلم لنفر من هنا .

قهقه (البقدونسى) طويلاً حتى سقط من فوق القدر وقال بصوت متقطع تمازحه الضحكات :

ــ الفارس .. (عبد .. الحميد) .. الذى تهابه كل السيوف .. وكل الفرسان .. ويذكره التاريخ .. على مر الأزمان .. يريد أن يفر .

واستمر فى قهقهته حتى دمعت عيناه وهو مستلق على ظهره يرفس الهواء بقدميه ، فقال الشيخ بعد أن عاونه (الزين) على النهوض بينما يجاهد (علىّ) ليكمل تخليص نفسه :

ـ يا لك من طفل .. برغم كل ذكائك وحنكتك وشعرك الأشيب إلا أن الطفل بداخلك يشرق دومًا .

عاود (على) (البقدونسى) على النهوض والتخلص من هذه النوبة ، وأخذوا يتلصصون عند المدخل ـ بعد أن قيدوا الحارس وكمموه ـ حتى أمنوا ، فخرجوا بسرعة من المكان ، وما إن ابتعدوا بما يكفى حتى تركهم (البقدونسى) يكملون رحلتهم حائرين دون إخبارهم بكيفية معرفته لمكانهم .

* * *

أخذت الأميرة فى حجرتها الواسعة تمر بين الطاولة والكرسى أو بين السرير والمرآة ، تتلمس الوسادة أحيانًا وتجلس على الأرض أحيانًا وتبدل ملابسها ـ دون حاجة ـ أحيانًا أخرى ، مر وقت طويل عليها بهذا الحال ، ثم جلست تجهز بردية ومدادًا وريشة لتكتب :

« إلى الفارس الذى اجتاح قلب أميرة بلاد الشرق ، الأميرة (سولى) .. »

توقفت عن الكتابة وأخذت تتأمل ما كتبت ، لم تشعر بالرضا ؛ فقامت لتحرق البردية فى مدفأتها ، وعادت لتكتب من جديد :

« إلى فارس بلاد الشرق ، الملك المنتظر ..

من (سولى) .. الحائرة التى تتمنى له العودة سالمًا ..

إننى أيها الفارس (الزين) أعجبت بشجاعتك وجرأتك أيما إعجاب عندما خبرنى ما قمت به من أجل صاحبك ضد الأشرار ذوى الملابس الخضراء ، أعجبنى إخلاصك لصاحبك ، كم تمنيت أن تكون لى من هى فى مثل وفائك صديقة ، أشكو لها وتهتم لأمرى .. أنت لا تظن أنى أخلو من الشكوى ، فوحدتى أقاسى منها ويُتمى يحز فى نفسى كل حين .

لا أخفى عليك فطنتى يوم رأيتك أول مرة ممتطيًا جوادك فعلمت أنك فارس ، تمنيت أن أعرف اسمك لحظتها .. ثم جاهدت محاولة تذكر وجهك بعدها دون أن أفلح كثيرًا ، حتى رأيتك فى ديوان الملك .. خفق قلبى من جديد ، وخشيت أن يفضحنى فانشغلت بفكرى فى أشياء أخرى غيرك ، لكن لم أتمكن من الاستمرار فى هذا طويلاً .

أعلم أنك الآن تواجه خطرًا ما ، كم أتمنى أن تنتصر .. أنا قد واجهنى خطر كبير هذا الصباح ، لا أنكر سعادتى لأن وضعتنى الأقدار فى هذه المغامرة .. أبدًا لم أمر بهذا الشعور من قبل ، هل أحكى لك ما حدث ؟ أنت فارس ومثل ما سأحكيه بالنسبة لك هين قابلت أعظم منه مرارًا .. ألم تفعل ؟

لقد حسمتُ أمرى وسأخبرك بمغامرتى ، أنت الآن صديقى حتى أفرغ من الحكى .. فهل تكتم السر ؟ الأصدقاء يكتمون الأسرار .

خرجتُ دون وعى إلى الأراضى المزروعة خارج القصر شاردة ، أفكر فيما أخبرتك به منذ قليل .. خفقان قلبى ورؤيتى لك أول مرة وجل هذه الأمور ، هل تذكرها أم إنك ستعاود القراءة من جديد ؟ بل أظنك لن تفعل ، فالفرسان لا ينسون بهذه السرعة .. خرجت ورائى وصيفتى تتكلم كثيرًا .. ربما كانت تناديني أو تحذرنى من الخروج أو تشكو لى أمرًا .. لم أتابع حديثها ولم أهتم ، إذ وجدتنى أتناول ثمرة أقضم منها وأنا على شرودى وما تزال الوصيفة تتبعنى ، راعنى فجأة صوت مخيف .. صوت ذئب .. لم أعلم فى حينها أن هذا الصوت لذئب لكنه كان صوتًا مخيفًا ، سقطت منى الثمرة وانتبهت إلى أنها برتقالة ، لقد قضمت البرتقالة بقشرتها ولم أنتبه للطعم إلا بعد عواء الذئب .. هل تعلم من الذى أنقذنى ؟ لقد كنت أتمنى أن تكون أنت منقذى .. أنت أول من جال بخاطرى

وقتها ، فى الحقيقة أنت لم تغب لحظة ، فكما أخبرتك أننى كنت أفكر بك .. لقد وعدتنى ، ستكتم السر .

وجدتُ جنديًا من حراس القصر يطلق سهمين على الذئب وهو قافز باتجاهى فسقط لتوه .. أنقذ الجندى حياتى .. ولامنى أبى بعد هذا برقة .

أنت فارس وبالتأكيد وراءك من الهموم الكثير ، أنت تُعد نفسك لتكون ملكًا ، وأنا أهدر وقتك بمغامرة سخيفة .. إننى لن أنسى هذه المغامرة ما حييت ، فهى أولى مغامراتى .. هل تظن أنه ستكون لى مغامرات أخرى ؟ هل شاركتك فتاة مغامرة من قبل ؟ هل يمكن أن تتاح لى مثل هذه الفرصة أيها الفارس ؟ أتتيحها لصديقة ؟ »

أخذت (سولى) تعيد قراءة ما كتبت عدة مرات ، وهى أمام الطاولة أو على السرير أو بينما تدور فى حجرتها من جديد ، المهم أنها فى النهاية طوت البردية ، وهزت رأسها متجهة نحو المدفأة !!

* * *

لم يكد الثلاثة يعبرون بوابة سور مدينة الأساطير إلى خارجها حتى وجدوا رجلاً يستند إلى صخرة على بُعد خطوات قليلة من البوابة ، اتجه إليه الجميع فبادرهم قائلاً :

ـ مرحبًا أيها السادة ، تأخرتم قليلاً .

سأله (علىّ) مندهشًا :

ـ وهل كنت فى انتظارنا يا هذا ؟

ـ نعم أيها الرشيق ، ما فعلت هذا سوى لتأتوا إلىّ .

خطر للجميع أنها مكيدة ثم خطر لـ (الزين) شيء آخر فقال :

ــ أنت من رجال (سانتور) ألست كذلك ؟

قهقه الرجل وهو يقول :

ــ كما توقعت تمامًا ، كنت أعلم أنك ستنتبه إلى ذلك أو الشيخ العجوز .. نعم أيها الفتى ، أنا من أعوان السفاح ، أو يمكنك القول إنني كنتُ من أعوانه .

ــ ولماذا (كنت) ؟

ابتسم الرجل وهو ينهض مجيبًا :

ــ لأنني فى مثل عقله ولى مثل طموحه ، وهذا لا يجعل التوافق بيننا شيئًا ممكنًا ؛ لذا قررت القضاء عليه .. لا يجتمع مثلانا فى عالم واحد فى ذات الزمن .

قال الشيخ (عبد الحميد) :

ــ فيم تريدنا إذن ما دامت نيتك سوءًا ؟ أنت تعلم أننا لسنا بقتلة .

اقترب الرجل من الشيخ :

ــ بالنسبة لكم نيتى سوء ، أما بالنسبة لى فالأمر ليس كذلك ، وبالنسبة لكم فأنتم بحاجة للقضاء على (سانتور) وشره ، وأنا أهل لمساعدتكم فى هذا الأمر .

قال (علىّ) :

ــ أو نقضى على سفاح من أجل آخر ؟

ــ بل من أجل بلادكم أيها الرشيق .

استدعت هذه الجملة عبارة العرافة بشأن بلادكم قبل الفجر ، فاستفسر (الزين) بحذر :

ــ ماذا تعنى ؟

ــ يتجه إلى بلادكم فى هذه اللحظة جيش الغرب ليغزوها ويضمها لحكم بلاده ، (سانتور) سيعاونهم مقابل أسر ثلاثتكم .. فلو أننا قضينا على (سانتور) لاختلت خطة قائد جيوش العدو ، ولتخلصتم من شره المضمر لكم ولبلادكم .. بل ربما والمضمر للأرض بأسرها .

تبادل (الزين) والشيخ و(علىّ) نظرات قلق حائرة فيما يسمعون ، وأخذ الرجل يتفحص أعينهم حتى استشف ترددهم فقال حاسمًا الأمر :

ــ سنفقد الكثير من الوقت لو أنكم ستدرسون أمرى بالصمت طويلاً ، علينا إنقاذ بلادكم .

ــ فيم مصلحتك إنقاذ بلادنا إذن ؟

سأله (الزين) ، فأجاب الرجل وهو يرفع الصخرة التى كان مستندًا عليها .

ــ مصلحتى هى إيجاد من يعــاوننى على التخلص من السفاح ، وهذه أمثل فرصة وقررت استغلالها .

ــ ماذا يضمن لنا أنك لن تكون سفاحًا آخر ؟

ــ لن أكون ، أعدكم أن تأمن بلادكم شرى .

سأله الشيخ :

ــ هل هذه الصخرة هى المسروقة من المدينة ؟

ــ نعم يا شيخ ، هى ذى أحملها لهم كى يهدأ روعهم أولئك الحمقى ، وهلم لنتجه إلى بلادكم سريعًا .

أومأ الشيخ برأسه فبادره (علىّ) بسؤال :

ــ هل سنتعاون مع لص يا شيخ ؟

ــ بل سننقذ بلادنا والأرض كلها من خطر داهم يا (علىّ) .

وعاد بالصخرة إلى داخل الأسوار .

* * *

بعيدًا عن المكان الذى احتجزهم فيــه (ســانتور) ، وبعــد مغادرة (البقدونسى) قال (علىّ) :

ــ ما هذا السائل ـ الزيت الأسود ـ يا شيخ ؟!

ظل الشيخ على صمته قليلاً وهو شارد ، ثم أجاب :

ــ كــان (خازن الشيبى) أحد علماء أرض الجزيرة قد اكتشف بالصدفة تحت سفح هضــبة سائلاً غريب اللون والملمس .. لزجًا أسود قمىء الطعم ، لكنه يؤمن بأن كل شىء فى الكون موجود لنفع .. فأخذ يبحث عن فائدة لهذا السائل اللزج حتى توصل إلى أنه وسيلة جيدة للاشتعال ، فكان يسكب بعضًا منه على الخشب ويوقد الشرر بقربه فتشتعل بسرعة ويشتعل بدوره الحطب بسهولة .

ــ وكيف علم السفاح بأمره ؟

ــ إن العلوم ليست ملك صاحبها يا (علىّ) .. لقد نشر (خازن)

هذه المعلومة بين أقرانه ليبحث كل عن مثل هذا السائل تحت أرض بلاده فيستفيدوا به ، لكن لم يفلح أحد ، ولم يعرف لهذا السائل مكان غير تحت هذه الهضبة .. وفى يوم نفد الزيت من تحت الهضبة ، ولم يعرف الكثيرون بهذا التطور فى الأحداث .. مر على هذا الأمر أعوام كثيرة ، وأظن المعلومة وصلت متأخرة وناقصة إلى (سانتور) .

قال (الزين) :

ـــ لماذا لم تخبره إذن بأن الزيت قد نفد ؟

ـــ لا تنس أننى أنكرت معرفتى بمكان السائل منذ البداية ، لقد استشعرتُ شرًّا من وراء اهتمامه بهذا الزيت فخشيت إخباره بمكان وجوده حتى لا ينبش أرض الدنيا كلها فيجده ، ويدمر العالم بشره المجنون .. وهو ما كان ليصدق أن الزيت نفد .

استمر الجميع على صمتهم حتى ابتسم (الزين) وسأل :

ـــ ما حكاية (البقدونسى) مع الجليد والأشواك يا شيخ ؟

ابتسم الشيخ و(علىّ) بدورهما ورد الأول :

ـــ كنا فى حرب مع جيش أقاصى الغرب ذات يوم ، وكانت قد وردتنا أخبار عن أسرهم المُعلم (خازن الشيبى) فى حرب مع الجزيرة منذ عدة شموس وأقمار ، فقرر (البقدونسى) التظاهر بأنه وقع فى أسرهم ولم أدر وقتها السبب ، لكن بمعاشرتى له فهمت أنه يدعى ما فعل ، وقررت ألا أتخلى عنه فتظاهرت مثله لأكون معه .. ولما عرفت خطته أيدته فيها .

صمت قليلاً كأنما يستعيد الأحداث ، ثم استطرد وهم على سيرهم :

ـــ كبّلونا شبه عراة إلى أوتاد فوق ثلوجهم الباردة ، ولم يكف (البقدونسى) عن التشكى والسخرية لحظة ، وتعجب الجنود من ضحكاتنا أحيانًا

وتعبيراتنا عن الألم أحيانًا أخر ، حتى خطرت لى فكرة استدعاء الشعور بقيظ بلادنا الشديد أثناء فصل الصـــيف بذاكرتى وجسدى كى تهدأ البرودة السارية فى أوصالى قليلاً .

أطرف ما فى الأمر أن (خازن) لم يكن ضمن الأسرى الذين وضعنا معهم ، فكان علينا البحث عنه فى الأماكن الأخرى بعد التخلص من قيودنا عند حلول الليل وإلهاء الحراس ، ثم إيجاده والعودة عبر كل هذه المسافة إلى بلادنا أو إلى الجزيرة .. خطة جنونية ، حماس الشباب وقتها وحده هو ما جعلنى أؤيد (البقدونسى) فيها .

قال (الزين) :

ـــ ولكننا لم نر (البقدونسى) معك سوى مرات قليلة .

ـــ إنه يكره الاستقرار ويهيم بالسفر والبحث والتعرف على أناس ومعرفة أمور العالم ، ويقارن بين الشعوب فى طباعها وطقوسها ، ولكنه فى النهاية لا يفتأ يعود إلى وطنه حين يشعر بالغربة تتسلل إلى نفسه ويفتقد أصدقاءه الأُوَل .

سأله (علىّ) :

ـــ وهل أنقذتم المُعلم (خازن) يا شيخ ؟

ـــ علينا أن نستدعى قصة الرقود على أشواك الصبار أولاً يا (علىّ) .

قال (الزين) :

ـــ استدعها إذن يا شيخ ، فقد بدأت أشعر بالجوع والعطش والإرهاق .

* * *

٨ ـ بـلا حـرب ..

ــ لا أصدق سذاجة هؤلاء القوم يا شيخ ، لقد كانوا على وشك عبادتك لمجرد أن أعدت لهم صخرهم السخيفة تلك .

قالها (علىّ) ، فرد عليه الشيخ وهم سائرون مع معاون (سانتور) القديم و(الزين) كل على جواد :

ــ ما لا أفهمه هــو كيف علم رجل (سانتور) بأمر هــذه المدينة وأسطورة صخرهم .

أجاب الرجل وهو متقدم المسيرة دون النظر إلى الوراء :

ــ هؤلاء القوم يصنعون من نبات أخضر مسحوقًا أبيض يتناولونه ، فيذهب بعقولهم بأسوأ مما يفعل الخمر يا شيخ ، وأنا اعتدتُ مقايضة هذا المسحوق بطعام وملابس لهم ، ومن خلال ترددى الدائم عليهم علمتُ الكثير .

(الزين) :

ــ لكنهم بدوا شديدى الاتزان والعقلانية .

ــ بل الحارس والعرافة فقــط ، إنهما من يحكم هذه المدينة ويدس فى رءوس أهلها الأوهام باسم الأساطير والتاريخ وما إلى ذلك .

الشيخ (عبد الحميد) :

ــ ولكن هذه المدينة لم يكن لها وجود من قبل .

ــ هُم رحالة متشردون تجمعوا فى هذه المنطقة وبنوا سورها بأمر الحارس الذى أوهمهم بأنها أرضهم ومدينتهم وكل هذا الهراء .

ــ لكن فى الكهف ، لقد كان ...

قاطعـــه الرجل :

ـــ كان منمقًا وأخبرك الحارس بأنه من صُنع الأجداد وهُراء آخر ، إنها أوهام للناظر تصنعها ساحرتهم (العرافة) .

(الزين) :

ـــ يا إلهى ، وكيف خُدعنا بهذه الطريقة ؟

ـــ ومن تكون أيها الفتى كى لا تخدعك أفعال السحرة ؟ المهم أنك لم تخسر شيئًا من ذلك بل إنك متوجه لتنقذ بلادك كما نبهتك هذه المرة .

(علىّ) :

ـــ وما أدرانا بصدقها ؟

ـــ أنا أدرى .

(الزين) :

ـــ وما أدرانا بصدقك ؟

ـــ سنعود بهذا إلى نقطة البداية أيها الفارس ، لا وقت نضيعه فى عملية التصديق هذه .

قال الشيخ بغتة :

ـــ أنت تخفى شيئًا .. أليس كذلك ؟

ـــ ماذا تعنى ؟

ـــ حكاية القضاء على (سانتور) وأنك فى مثل تفكيره وطموحه .. ربما أنت صادق بهذا ولكنه ليس السبب الوحيد ، فليس أمرًا كافيًا لقتل شخص .

لم يُجب الرجل ، فتوقف الشيخ بجواده وشعر الرجل بهذا فاستدار ناحيته :

ــ أنت على حق ، لكننى لا أرغب فى ذكر المزيد .

ابتسم الشيخ وعاود السير قائلاً :

ــ لا بأس ، فلن أجبرك .. المهم أننى ازددت ثقة فى شيبتى هذه التى لم يخطئ حدسها .

قال (علىّ) بعد صمت خيم على الجميع :

ــ هل (سانتور) يهودى كما يشاع عنه ؟

أجابه الرجل :

ــ لا ندرى من أمر دينه شيئًا .

ــ هل أنتم يهود ؟

ــ هل تقصد بــ (أنتم) أى أتباع (سانتور) ؟

ــ نعــم .

ــ فى أتباعه من كل الأديان نفر أيها الرشيق .

استمروا على سيرهم بصمت جديد حتى كسره (علىّ) :

ــ كيف عرفت أن هذا الرجل من أتباع السفاح يا (زين) ؟

ــ ألم تلحظ منادته لك بالصفة التى وصفك بها ذلك الــ (زعيتر) ورفيقه فى الكهف يا (علىّ) ؟

ــ هذا صحيح .

ابتسم الرجل بإعجاب دون أن يلحظ أى منهم هذه الابتسامة لتقدمه المسيرة ، يليه (الزين) و(على) متجاورين ، ثم الشيخ خلفهم .

* * *

دخل الحاجب ديوان الملك (شاكسير) يبلغه بطلب (سانتور العظيم) لمقابلته ، فقال الملك :

ــ العظيم !! ليدخل وحده إذن دون سلاح ، إنه شخص خطر لا يؤمن جانبه ، وابعث إلىّ بحارسين أو ثلاثة .

لم تمض وهلة حتى دخل السفاح مجردًا من سيفه وسوطه ، يرافقه ثلاثة من حراس الملك الذى بادره وهو يتفحص قامته :

ــ أنت السفاح إذن .

ابتسم (سانتور) وهو يرفع صدره ويركز بيديه فى نطاقه قائلاً :

ــ هو أنا يا جلالة الملك (شاكسير) الحكيم .

ــ ماذا تريد ؟ ألم تكتف بمعادتنا وسرقة بلادنا وتأليب البلاد الأخرى علينا ؟

نظر (سانتور) إلى حراس الملك وهو يقول مشيرًا ناحيتهم :

ــ هل سنتحدث أمام هؤلاء ؟ إننى وحدى بلا سلاح ، أفلا تأمن نفسك معى رغم هذا ؟

تطلع الملك فى عينيه مباشرة وهو يجيب بحزم :

ــ دعك من هذه المحاولة ، أنت تعلم أننى عجوز مسن أفتقر للياقتك وقوتك ، يمكنك قتلى بيديك العاريتين أيها السفاح ، دون أن يطرف لك جفن .

ـــ كيف تظننى سأخرج من هنا بعد ذلك إن فعلت ؟

ـــ لا يهمنى أن أفكر فى هذا ، هات ما عندك .

قالها بعصبية وهو ينهض من عرشه ، فقال (سانتور) بهدوء :

ـــ إننى أضع قوتى وجيشى تحت تصرفك أيها الملك الحكيم .. أريد أن أكون من الأخيار ، ورأيت أنك أكثر من سيتفهم ذلك ويعاوننى عليه .

حملق الملك فى وجه (سانتور) طويلاً ثم ارتمى على كرسيه ، وبعد هنيهة هز رأسه وعاود الوقوف مرة أخرى وبدأ يدور حول عرشه مفكرًا فى كلام السفاح ثم انتصب أمامه مباشرة وعاد للحملقة به مرة أخرى ، ثم قال :

ـــ كلا أيها السفاح لا يمكننى ذلك ، فأنا ما زلت أتوجس منك ولا أستطيع أن أسلم لك مقاليد أى أمور قبل التأكد من صدق نيتك وهدفك .

ـــ كنتُ أتوقع هذا الرد منك أيها الملك الحكيم ، لذا فأنا مستعد لعمل أى شيء تريده كى أثبت لك حسن نيتى وصدق هدفى كى تأمن لى .

هز الملك رأسه متفهمًا وعقد كفيه خلف ظهره واتجه إلى كرسى الحكم ووقف أمامه موليًا ظهره لـــ (سانتور) لفترة طويلة ، والحراس الثلاثة متحفزون طوال الوقت ، والسفاح بادى الهدوء للغاية حتى التفت له الملك وسأله بسرعة :

ـــ ستكون تحت إمرة كبير العسس تعمل على تدريب حراس الأمن .

أجاب السفاح :

ـــ كما يأمر مولاى الملك .

صاح الملك بحراسه غاضبًا :

ـــ كبّلوه جيدًا هذا الوغد .

اندفع حارسان بسرعة يقيد كل منهما ذراعى (سانتور) بقوة ، بينما رفع الثالث القدمين عن الأرض ليصبح بهذا عاجزًا عن الحركة مندهشًا غاضبًا يسأل :

ـــ لكن لمـــاذا ؟

أجابه الملك :

ـــ لأن السفاح يعتبر مثل هذه الأعمال دون مكانته ، فهو قائد عظيم لجنود لهم شأن عظيم عبـــر العقود ، ولما يقبل لواحدة من الأعمال التى لا تليق به فهو بالتأكيد يخطط لشىء خطر يضمر وراءه شرًّا .

بدأ حاملوه بالتحرك به ، لكن هذا لم يمنعه من أن يقول بلهجة لوم :

ـــ ولكننى أخبرتك أننى أود الاهتداء .

ـــ هل تظننى أصدق أنك فجأة غيرت مبادئك وأهدافك وفرقت الصواب عن الخطأ خلال يوم واحد فقط ؟ إنها واحدة من ألاعيبك أيها السفاح .

ثم صاح بحراسه :

ـــ أخفوه عن وجهى فى سجن القصر ، ولتحذروا ألاعيبه جيدًا .

* * *

انتقى الشيخ (عبد الحميد) واحدة من خرائطه وفردها أمام عينيه ثم أشار إلى نقطة ما عليها وهو يقول :

ـــ هناك بئر فى هذا الاتجاه أيها الفارسان ، فلنتجه ناحيتها ريثما أكمل لكما قصة المعلم (خازن) .

وجه الثلاثة ألجمة خيولهم إلى حيث أشار الشيخ بينما كان يحكى :

ـــ بعد طول عناء دون زاد أو ماء ، وبحذر شديد لتفادى جنود جيش العدو كنا نبحث عن (خازن الشيبى) بين وجوه الأسرى ، وجوه منهكة تغيرت ملامحها بسبب التعذيب ، ووجوه أدركنا تمامًا رغم أعينها المفتوحة أنها لا ترانا ولا تشعر بوجودنا .. ربما ماتت أو فى حالة من اللاوعى أو عميت .. المهم أن أكثر ما أقلقنا هى الأماكن المقفلة ، كنا نخشى أن يكون بها أسرى من بينهم (خازن) .. حتى وجدناه .

صمت قليلاً ثم استطرد :

ـــ كان يبرز من الجليد أشواك لا أدرى كيــف وضعوها أولئك الوحوش الآدمية ، كان (خازن) مقيدًا على ظهره إليها ، تعذيب بالبرودة والخدوش خاصة لو تحرك فوق هذه الأسنة المدببة .. تهللت أساريرنا ونسينا العناء والألم فور رؤيته ، وكدت أنسى وضعى من السعادة وأخرج من خلف الصخرة لإنقاذه لولا أن جذبنى (البقدونسى) بقوة هامسًا بغضب « تمهل .. والحراس ؟ » ، نظرتُ ناحيتهم مرتبكًا وهم يدورون حول الأسرى المقيدين فى الأرض أو المصلوبين أو المعلقين يتفحصون نبضاهم وأعينهم ، فالتفتُ إلى (البقدونسى) لأستشيره فيما علينا فعله الآن ، لكن فوجئت به غير موجود .. هلعتُ وبحثت عنه بعينى فى كل مكان حتى وجدته يزحف بالقرب من (خازن) .. ولا أخفى عليكما أننى كدتُ أضحك إعجابًا بفطنته وحسن تصرفه ، وكذا لطريقته المضحكة فى الزحف .

كانوا قد اقتربوا من البئر ، فقال الشيخ :

ـــ هيا يا (زين) سد جوعك واملأ بطنك بالماء ، لكن بتمهل .

ترجل (علىّ) من فوق حصانه ليعاون (الزين) السائر منذ برهة ، على ملء القرب التى يحملوها من ماء البئر حتى ارتوى الجميع وفاض معهم الكثير مما سيحملونه فى مسيرهم .. ثم استحث (علىّ) الشيخ (عبد الحميد) لاستكمال القصة :

ـــ كانت أصعب لحظة على (البقدونسى) هى عند اقترابه من موقع (خازن الشيبى) حيث أدمت يديه الأشواك ، ولم يتمكن من تمزيق أى جزء من ملابسه ليحمى به يديه كى لا يجذب انتباه الحراس ، ثم ظهرت لحظة أخرى أكثر صعوبة من سابقتها ، عندما صاح أحد الأسرى المقيدين بجوار (خازن) معلنًا وجود غريب يحاول إنقاذ أسير .

قال (الزين) بغضب :

ـــ ولماذا يفعل ؟ تبًّا له .

أجابه الشيخ مبتسمًا :

ـــ لا داعى للغضب يا (زين) أنت تعلم أن كليهما عبر هذه المحنة بخير .

ثم استطرد :

ـــ لقد ظـــن الأسير أنه بفضـــح أمر (البقدونسى) و(خـــازن) ، سيرضى الأعداء فيطلقوا سراحه ، ولكن فى الحقيقة أنهم كانوا أكثر احترامًا من ذلك ، فقد انقضوا على (البقدونسى) وقيدوه بجوار صديقه وذهبوا يستدعون كبيرهم ليبت فى الأمر ، ولما أتى ، أمر بقتل الواشى ، بحجة أنه

ارتكب خطيئة عظيمة .

ــ مبدأ نبيل .

ــ نعم ، ولكن كان عليّ وقتها إنقاذ رجلين بدلاً من واحد ، ودون أن ينفضح أمرى .

* * *

بدا رجُل (سانتور) المتمرد ، عريض المنكبين طويل القامة بلحية مهذبة وعمامة ملونة وهو ينــزل عن جواده يقول بسخرية :

ــ إن هذا الحصان يئن من وطأة ثقلى عليه ، ليتنى استعنت بجمل .

لم يتلق ردًّا فقال بأسى دون النظر وراءه :

فى يوم أعلنت تمردى على (سانتور) ، وأوضحت له ــ بعد طول تفكير ــ أننى لا أصلح أن أكون مجرد رجل من رجاله ، وأخبرته أننى سأكون جيشى الخاص ، وأننى لن أتواجد بهذا الجيش الجديد فى المناطق الخاضعة لشره ، فاعترض على هذا التمرد ، وحذرنى أنه لا أحد يتمرد على (سانتور) العظيم أو يعصى أوامره ، وأمهلنى حتى صباح اليوم التالى لأراجع نفسى .

سكت قليلاً ونظر لرفاقه فوجدهم يتبادلون قربة مياه ، ثم ناولها له ، شرب قليلاً ثم أكمل :

ــ لم أكترث لتهديده ، وهربت فى الليــل عائدًا ــ على مسيرة يوم ــ إلى زوجتى وطفلتى الصغيرة أعدّهما للرحيل .

إلى مكان آخر ، ولكن توجب علىّ تأجيل الرحيل يومًا واحدًا على الأقل للراحة من إنهاك السفر .

تحولت لهجته إلى الشراسة وهو يستطرد :

استيقظت على صوت جلبة لأجد (سانتور) ورجاله خارج الكوخ مقيدين زوجتى المسكينة وطفلتى الصغيرة ذات الأعوام الثلاثة ، مكممين فاهيهما والدموع تغمر أعينهما ، انطلقتُ باتجاههما ، لكن أصابنى رمح أحد الرجال ، ورأيت السفاح يسكب عليهما سائلاً أسود اللون كانا ينفران من لزوجته على جسديهما وهو يقول لى ببطء : « لا أحد يخرج عن طوع (سانتور) العظيم » ثم ألقى بشعلة فوقهما ، واحترقا أمامى .. احترقا وصوت صراخهما المكتوم يمزق قلبى ، وأنا عاجز عن إنقاذهما تمامًا لأن ثلاثة رجال كانوا يكبلوننى وأحدهم يضغط على الجرح مكان إصابة الرمح .

كان صوته متهدجًا فناداه الشيخ (عبد الحميد) ولما التفت رأى الدموع تغمر عينيه ، أخذ يواسيه وكذا (الزين) و(علىّ) حتى استرد جأشه وقال لهما :

ــ لا داعى لهذا ، فأنا بخير .. رغم أن هذا الأمر لم يمض عليه سوى خمسمائة قمر وشمس .

قال (الزين) :

ــ وهل ما زال الانتقام فى قلبك من وقتها لم تنفذه ؟

ــ لن أكذب عليك أيها الفتى ، لقد حاولتُ مرتين وفشلت .. إن رجال (سانتور) أوفياء له إلى حد لا يصدق ، فلا يمكن الاقتراب منه حتى وهو نائم لأن خمسة رجال على الأقل يحرسونه حتى يستيقظ .

مضت هنيهة قبل أن يقول (علىّ) :

ـــ هل هو ذا سور مدينتنا .

ـــ لكن أين جنود الأعداء ؟ لقد كنتُ أعلم أن العرافة تكذب .

هكذا قال (الزين ابن الجبال) .

* * *

وصل قائد جيوش الغرب إلى سور بلاد الشرق ، وبدأ فى إلقاء الأوامر لمساعده والجنـــود كى ينتشروا حسب الخطة المسبقة ، وفجأة انشقت الأرض عن رجل تحت كل جواد من جياد الأعداء يسحب ممتطيها عنها ويجرده من السلاح ثم يكبله ، وبعض الرجال فوق الجبل الخلفى وسور المدينة قد ظهروا يصطادون بسهامهم ونبالهم من لم يتمكن رفاقهم منهم ، شعر القائد بالعجز عن التصرف وفكر فى طلب مدد من بلاده ولكن .. من عليه أن يرسله لإبلاغ الإمبراطور بحاجتهم إلى مدد ؟

* * *

لما اقترب (الزين) من سور بلاده أكثر ، ارتفع حاجباه وتسمر مكانه فوق الجواد ، فسأله (علىّ) :

ـــ ماذا بك يا (زين) ؟

ردد (الزين) بعد عدة نداءات من (علىّ) والشيخ (عبد الحميد) بينما رجل (سانتور) يتابع :

ـــ « ابحث لى عن الصبر فى بلاد الغيظ ، وعن الحق فى بلاد الظلم ، وعن الجوع فى بلاد الغنى » .

ثم استطرد :

ـــ لم أفعل أيًّا من هذا .

ابتسم الشيخ (عبد الحميد) بينما ارتبك (علىّ) وأعرب الرجل عن عدم فهمه ، وفجأة جال بخاطر (الزين) وجه الأميرة (سولى) .. وشعر بخفقان قلبه وفقد تركيزه ، ثم قرر الثلاثة دخول بلادهم

بحذر .

* * *

نجح قائد جيوش الغرب مستخدمًا درعه وسيفه فى الهروب من أعدائه والابتعاد قدر الإمكان عن ساحة الأسر ، ولم يعــرف أين يذهــب فأخذ يدور حول الجبال المتناثرة حتى قابله رجل ضخم الجثة يشوى شيئًا داخل كهف قريب ، سأله القائد دون أن يفصح عن هويته :

ـــ أين أجد (سانتور) ؟

أجابه ضخم الجثة :

ـــ أنت غريب عن هذه الناحية ، ألست كذلك ؟

لم يرد عليه القائد ، فقال ضخم الجثة من جديد :

ـــ أنت تريد السفاح إذن ، فيم تريده ؟

كرر القائد :

ـــ أين أجد (سانتور) ؟

ناوله الضخم قطعة مما يشوى ، فأبى القائد تناولها منتظرًا الإجابة ، قضم الرجل قطعة بطريقة منفردة ، ثم قال من بين الدهن المتساقط :

ـــ عشرين قطعة ذهبية وجوادك هذا .

هز القائد رأسه بمعنى أنه لم يفهم ، فقام الرجل ومد يده الملطخة إلى الجواد ثم فرك إصبعيه السبابة والإبهام وبعدها انتصبت أصابع يديه مرتين ليعلن عن عشرين إصبعًا ، أخرج القائد كيسًا صغيرًا ألقاه إلى الضخم ونزل عن جواده مادًّا إليه اللجام ، ابتسم الضخم وسار به إلى حيث (سانتور) .

وصل الضخم راكبًا الحصان مع القائد المترجل حتى يعلو بطنه كهف يشوى أمامه عدد من الرجال لحمًا جال القائد بعينيه فيما حوله ليجد أن الكثيرين منهم ينتشرون على حواف الجبال المحيطة ، وأن عددًا آخر يشوى لحمًا أمام كهف آخر فى أحد الجبال ، ثم سمع الضخم يصيح :

ـــ زائر لسيدى (سانتور) العظيم ، وهو مجرد من أى سلاح .

صاح أحد الرجال من أمام أحد الكهوف :

ـــ هنـــا .

استدار ناحيته الضخم ثم لكز جواده فى الاتجاه ، وتتبعه القائد حتى ترجل الضخم وتسلقا معًا حيث الكهف . حاول الضخم أن يتكلم وسط لهاثه ، ولكن السفاح أشار إليه بالصمت وهو يوجه كلامه إلى القائد :

ـــ ماذا هناك ؟

ـــ كارثة .. سقط جنودى فى مصيدة سخيفة دبرها جنود الأعداء ، واستطعت الفرار بمعجزة .

ـــ والمطلوب ؟

ــ مساعدتك لى ، أريد إرسال مدد من الإمبراطور .

سأله السفاح وهو يناوله بعض المــاء :

ــ ولماذا لا تذهب بنفسك ؟

تناول الماء وشرب منه ثم أجاب :

ــ علىّ الاسترخاء حتى يصل الجنود لأتمكن من قيادهم ، وكذا تجهيز خطة مناسبة بمعاونتك للتغلب على هؤلاء الشياطين .

قهقـــه (سانتور) عاليًا وطويلاً ، ثم قال والقائد مندهش :

ــ أنت تخشى أن يعاقبك حاكم بلادك أو يعزلك ، أليس كذلك ؟

وعاود القهقهة من جديد ، فقام القائد محتقن الوجه يقول بغضب :

ــ مولاى الإمبراطور يثق بكفاءتى وقدرتى على السيطرة على الأمور ، لولا هذا ما كلفنى بقيادة جيش البلاد أيها الأحمق .

لم يكد يلفظ كلمته الأخيرة حتى وقفت ذؤابات الكثير من سيوف رجال (سانتور) بسرعة على حافة عنقه ، بينما أوجه حامليها تنتظر أوامر زعيمهم الذى أشار بيده ليتراجعوا ، ولما فعلوا قال (سانتور) محذرًا القائد :

ــ إياك أن تتجاوز حدودك مرة أخرى ، وعليك أن تتحدث معى بتهذيب أكثر من هذا ، فأنا لست واحدًا من رجالك المأسورين .

وصمت قليلاً متطلعًا إلى وجه القائد المتوتر ، ثم أضاف منتقمًا :

ــ أيها الأحمق .

لم يرد القائد فقام (سانتور) وأخذ يلقى بأوامر عديدة على رجاله وخرج يتفقد الآخرين المتناثرين حول كهفه ، ثم عاد للقائد وقال له :

ــ هاك ما سنفعله أيها القائد الفاشل ، ولتتعلم ممن سبقوك فى القيادة وتولى زمام الأمور .

وبدأ يملى عليه خطته .

* * *

٩ ـ النهاية وما قبلها ..

دخل حاجب الملك (شاكسير) ديوان الحكم وهو يقول :

ــ الشيخ (عبد الحميد) وثلاثة معه يستأذنون فى الدخول يا مولاى .

أومأ الملك برأسه فانحنى الحارس وخرج ليدخل الرجال الأربعة محيين الملك ، ثم استفسر الشيخ عن خطر الحرب على بلادهم الذى سمعوا به فى رحلتهم فطمأنهم ، ثم تساءل بدوره عن الغريب الرابع المرافق لهم :

ــ إنه رجل طيب قابلناه فى رحلتنا يا جلالة الملك ، وهو أيضًا فارس شجاع يمكننا ضمه لجيشنا إن شاء .

هكذا أجاب الشيخ (عبد الحميد) فسأله الملك :

ــ هل هو أهل لثقتك يا شيخ ؟ أنت تعلم أن جيش البلاد ...

قاطعه الشيخ بقوله :

ــ لا تقلق يا مولاى ، إنه مكسب لبلادنا وجيشها .

كان الرجل مترددًا مندهشًا مما قيل بحقه ، ثم اضطرب حينما سأله الملك :

ــ هل لك خبرات فى القيادة من قبل ؟

لم يدرِ بما يجيبه ، فأنقذه الشيخ بقوله للملك :

ــ ما دامت كل الأمور بخير أفلا نرتاح قليلاً من عناء السفر يا ملك بلاد الشرق ؟

ابتسم الملك وهو يقول :

ـــ بلى يا (عبد الحميد) ، يمكنكم الانصراف الآن ، ولكننى أريد (الزين) فور حصوله على القسط الكافى من الراحة .

ـــ أمر مولاى الملك .

هكذا أجـاب (الزين) وهو يجول بعينيـه فى الديوان ، ثم انصرف الجميع .

* * *

كان إمبراطور بلاد الغرب يجوب ديوانه بغضب وهو يقول بسخط :

ـــ لا أفهـم كيف يمكننى إرضاء هـذا الشعب المخبول ، لا شىء يرضيهم أبدًا .

ـــ والدك كان يرضيهم .

التفت الإمبراطور إلى وزيره بغضب ، وهو يقول :

ـــ والـدى ؟! هل نسيت ما حدث لوالدى أم إنه علىّ تذكيرك يا صديقى الوفى ؟!

ابتسم الوزير وقال بهدوئه المعتاد :

ـــ بل ذكرنى بما حدث لك أنت ، ألم تصبح إمبراطور البلاد ؟

ـــ بلى ، ولكننى عاجز عن تصريف أمورها العثرة .

ـــ لا أحد يسير الأمـور وحـده ، عليك بالاعتماد على من كان ناجحًا فى هذا .

اقترب الوزير منه وربت على كتفه ، وقال فى أذنه بهمس :

ـــ والدك لم يكن له طموح ، كان عجوزًا سئم الدنيا وينتظر لحظته الأخيرة .. ورغم هذا فلم يهتم بتأهيلك لتدبر زمام الأمور من بعده ، لم يكن يثق بقدرتك على حكم شعب بأكمله ، لذا فعليك أن تعتمد على نفسك فى هذا .. وأنا سأعاونك حتى تصبح ملك الأرض كلها لا بلاد الغرب فحسب .

صمت قليلاً يتابع كلماته على صاحبه ثم عاود الحديث :

ـــ سأساعدك فى هذا ، المهم ألا تيأس بسرعة ، فمثل هذه الأمور تحتاج إلى وقت طويل للإعداد وجهـــد كبير للتنفيذ وكم وفير من الصبر والتأنى يا .. صديقى .

سأله الإمبراطور :

ـــ وماذا عن الحروب ؟ غزونا لبلاد الشرق ؟ إن الشعب غير راضٍ عن هذا .

ـــ وما أدراهم بما هو فى صالحهم ؟ اصبر حتى تصبح هذه البلاد ضمن ولاياتنا ويعم خيرها هؤلاء المعترضين الأغبياء ، وقتها سيقبلون يدك بل وربما سجدوا لك تقديرًا لاهتمامك بهم ورعايتك لمستقبل أولادهم .

ابتسم الإمبراطور وهو يسرح بخياله للمستقبل ، ويرسم بعينيه فى الهواء عرشًا أكبر مما هو جالس عليه الآن .

* * *

سأل (على التوحيدى) الشيخ (عبد الحميـــد) وهما بداخل منـــزل الأخير يرتبانه :

ـــ لم تخبرنى يا شيخ كيف أنقذت (البقدونسى) والمُعلم (خازن) يوم كانا فى الأسر ؟

ابتسم الشيخ واعتدل فى وقفته كأنما يتذكر أحداثًا لطيفة ، ثم أجاب :

ــ لم يكن بالأمر العسير يا (علىّ) ، فقد تابعت تحركات حراس الأسرى حتى اقترب أحدهم من مخبأى والآخرون منشغلون عنه بجلبة صنعها (البقدونسى) ، مشاجرة سريعة بيننا غاب بعدها عن الوعى ، وكانت خطتى تعتمد على ارتداء ملابسه كى يظن رفاقه أننى واحد منهم ، ولكن اعتمدت على غطاء الرأس الحديدى الذى يرتدونه والعباءة الحمراء ، ثم اتجهتُ ممسكًا برمحه ناحية (خازن) و(البقدونسى) الذى كاد يلقى بعبارة ما سخيفة كعادته ويلفت الأنظار من جديد ، فأمسكت بهما كمن يقودهما إلى جهة ما مخفيًا وجهى فى ظهريهما ، وخدعت ملابسى الحراس حتى أصبحنا بمنأى عنهم .. وهربنا .

ــ يا للعبقرية !

هتفها (علىّ) بإعجاب ، فرد عليه الشيخ :

ــ العبقرية تكمن فى البساطة والثقة بالنفس يا (علىّ) .. هلم لنفرغ من هذه الدار نرتاح قليلاً قبل الذهاب إلى الملك .

قال (علىّ) بقلق :

ــ بشأن (الزين) ؟

ــ هل تعلم أن الملك سيُسر كثيرًا عندما يعرف بأحداث رحلتنا ؟

سأله (علىّ) بتعجب :

ــ يُسرّ ؟ ولكن كيف ؟ إن (الزين) لم ينفذ شيئًا مما أرسله الملك لتحصيله .. لا الجوع فى بلاد الغنى ولا هذه الأمور كلها .

اتسعت ابتسامة الشيخ وهو يقول :

ــ يا (علىّ) ، ما كان الملك يعنى هذا بالحرف ، لكنه أراد من (الزين) أن يكتسب الخبرات ويجوب البلاد .. وأنا أدرك تمامًا أنه كان يتوقع اصطحاب (الزين) لى فى الرحلة ، وبذا يستفيد من خبراتى بشكل أوسع وأسرع كى يتمكن من حكم بلاد الشرق كما هى إرادة الملك .. ولكننى أظن الملك سيجعل من (الزين) مساعده أو معاونه لفترة كى يكتسب خبرة الأمور الخاصة بشكل الحكم وكيفيته داخل القصر .

تمتم (علىّ) :

ــ ولكنك يا شيخ .. أعنى ...

لم يخرج ما يجول بنفسه على لسانه فاستدركه الشيخ :

ــ كلا يا (علىّ) ، لم يخبرنى الملك بأى مما قلته لك ، ولكنها الصداقة القديمة بيننا .. قد أصبح كلانا يفهم الآخر بمجرد التفكير يا ولدى ، وهذه أمور لا تتبدى إلا للأنقياء .

خفض (علىّ) رأسه فأكمل الشيخ :

ــ وهذا لا يعنى أنك و(الزين) لستما بالنقاء المطلوب ، ولكنكما لم تنتبها للأمر بعد .

تهللت أسارير (علىّ) بعض الشىء ، ثم سأل :

ــ لكن يا شيخ كيف عرف (البقدونسى) بأمرنا عند السفاح ؟

تطلع الشيخ فى عينيه مباشرة ، وهو يقول :

ــ صدقنى يا (علىّ) ، بحياتى لم أجد (البقدونسى) شديد الغموض مثل ذلك اليوم ، ولكن يمكننا اعتبارها تصاريف القدر .. نحن أيضًا ما كنا لنعرف بغزو الأعداء لبلادنا فى الرحلة لولا تصاريف القدر .. أليس كذلك ؟

ـــ بلى يا شيخ .

جلس الشيخ ينظر إلى (علىّ) طويلاً ، فبادره الأخير سائلاً :

ـــ ماذا تريد أن تسألنى يا شيخ ؟

أجاب الشيخ بسرعة وهدوء :

ـــ ألا تغار من اختيار الملك لـــ (الزين) كى يكون ملكًا للبلاد ولم يخترك أنت ؟

ـــ كلا يا سيدى على الإطلاق ، أنت تعلم أننى أحب الخير لصديقى هذا ، وكون (الزين) هو الملك أو أنا ففى الحالتين كأننى أنا الملك بالفعل .. هل سيتأخر (الزين) عنى فى أى مطلب حين يكون ملكًا ؟ لا أظن .

ـــ ولكن يا بنى ، للسلطة شهوتها وغرورها .

ـــ لن يكون (الزين) إذن أهلاً للحُكم لو غلبته السلطة ، وأنت تعلم أكثر منى أنها لن تهزمه .

نظر الشيخ إلى أعلى ثم إلى (علىّ) ثم إلى الأرض ، والدموع تخالط ابتسامته .

* * *

وقف (الزين) أمام الملك (شاكسير) يجيب :

ـــ بلى يا جلالة الملك ، ولكننا فور علمنا بأمر اتجاه جيوش الغرب إلى مملكة الشرق لغزوها ، قررنا إنهاء الرحلة والعودة لمساندة أهلنا .

ـــ فى الحقيقة أننى لا أستطيع الجزم بصواب أو خطأ هذا القرار ، ولكن حسن النية فيه وعدم التسبب بأضرار لأحد أمر كاف لإدراك أنك بذلت جهدك .

نهض الملك واتجه ناحية (الزين) وهو يقول مبتسمًا :

ــ لقد جعلتك تنبش فى الأرض عن الصعاب كى تجدها ، حتى عندما يقف أمامك رجل تستطيع أن تنبش بداخله ، وتعرف أصديق هو أم عدو .. مخلص لك أو مدعٍ .

ــ ولكننى لم أحقق ما أمرتنى به يا مولاى ، فما وجدت العدل فى بلاد الظلم ، ولا ...

قاطعه الملك :

ــ كان هدفى الأول أن تكتسب خبرات الحياة بشكل أكثر وأسرع يا (زين) .. وكنتُ متوقعًا اصطحابك للشيخ (عبد الحميد) .

استطرد الملك :

ــ أنت تعلم يا ولدى أنه ليس من سمات بلادنا تمليك حكمها للنساء ، فهن رقيقات القلب يتبعن عواطفهن المرهفة لا عقولهن ، كما أنهن لا يمتلكن الخبرة والحكمة كالرجال الذين يطوفون البلاد ويتعاملون مع صنوف البشر المختلفة .. إنهن محصورات فى علاقاتهن مع الأقارب والجارات .

صمت الملك قليلاً ثم توجه إلى عرشه وهو يكمل :

ــ أنت ستصبح زوج ابنتى ، وستتولى حكم البلاد فى يوم من الأيام .

نظر إليه (الزين) بدهشة ، فقال الملك مبتسمًا وهو يغمز بعينه :

ــ لا تظننى لم ألحظ نظرات الإعجاب فى عينيك .

أطرق (الزين) خجلاً وهو يتمتم فقاطعه الملك مرة أخرى :

ــ وهى كذلك .

ارتفع وجه (الزين) إلى الملك منبهرًا راغبًا فى الاستزادة ، لولا دخول الحاجب :

ــ الشيخ (عبد الحميد) وشاب مرافق له يا مولاى الملك .

ــ فليدخلا ، وابعث إلينا بالسفاح مع ثلاثة من الحراس الأشداء .

ثم وجه كلامه إلى (الزين) :

ــ لابد أن نضع حدًّا لهذا السفاح ونقرر ما علينا أن نصنع به .

أومأ (الزين) برأسه بينما دخل الشيخ و(علىّ) ، فرحب بهما الملك وسألهما :

ــ أين صديقك الذى أوصيت أن يكون فى جيش البلاد يا (عبد الحميد) ؟

ــ فى الحقيقة أيها الملك إننى ...

قاطعه الملك بهدوء :

ــ أعلم أنك لم تعن ما قلته يا (عبد الحميد) ، أنت كنت تحاول تعليم ذلك الرجل شيئًا ما ، أليس كذلك ؟

ابتسم الشيخ وهو يجيب باقتضاب :

ــ بلى .

دخل ثلاثة من الحراس حاملين (سانتور) على أكتافهم ليعيقوا حريته فى التحرك ، وكــان يرتدى نفس الملابس التى سُجن بها .. جلباب يعلوه وشاح يحيط برقبته ، كان الجميع جلوسًا يحدقون فيه فقال بسخرية :

ــ فيم تحملقون ؟ أتظنوننى قردًا ؟

تجاهل الجميع جملته ، ودخل الحاجب يهمس فى أذن الملك الذى أومأ برأسه ثم سألهم :

ــ ماذا ترون أن نصنع بسفاح مثله يا سادة ؟

بدأ (سانتور) فى الاحتجاج والصياح وكان يهتز فوق أكتاف الحراس حتى سقط ، فى اللحظة التى دخلت أميرة البلاد متجهة نحو أبيها ، فسحب وشاحه ليظهر من تحته سوطًا غليظًا أخذ يجلد به الحراس وهو يدور حول نفسه ، كان الأمر سريعًا مربكًا ، لكن (الزين) كان أكثر الجميع حنكة إذ قفز باتجاه الأميرة وألقى بها أرضًا ، ثم سحبها ناحية العرش ليتمكن من حمايتها مع الملك فى الوقت الذى كان فيه (علىّ) يحاول قطع السوط الطويل بسيفه ، لكن بدا (سانتور) ماهرًا فى إبعاده عن ذؤابة سيف (علىّ) ، ووسط هذه الجلبة دخل الكثير من حراس القصر إلى الديوان لولا أن صاح بهم الشيخ (عبد الحميد) آمرًا :

ـــ عودوا لحماية القصر .. كل غرفة فيه ، كل مدخل .. أسرعوا .

تردد الحراس لأنه من غير المنطقى تنفيذ أوامر رجل غير قائدهم والملك ، ولكن صاح بهم الأخير بدوره :

ـــ افعلوا كما أمر .. هيا .

بينما هم منتشرون فى أرجاء القصر ، دخل وزير الدولة ساخطًا يقول :

ـــ ماذا يحدث هنا ؟

صاح به (سانتور) وهو لا يزال يضرب بسوطه فى الهواء كى يمنع اقتراب أى من الموجودين ناحيته :

ـــ اخرس والزم مكانك .

ثم استطرد ساخرًا :

ـــ المزيد من الشيوخ إذن ، يا لها من دولة تستحق الاحتلال حقًا .

وقفت الأميرة على قدميها تتعلق بـــ (الزين) وتهمس فى أذنه :

هل يمكننى مساعدتك أيها الفارس ؟ إننى أرغب فى ذلك حقًّا .

لم يمنع (الزين) نفسه من الابتسام وهو يقول هامسًا :

ـــ هذه ليست رحلة صيد أيتها الأميرة ، إن الأمر شديد الخطورة بحق .

ـــ أعلم هذا ، لذا أريد المساعدة .. أريد أن أفعل شيئًا له أهمية .

شارك (الزين) الآخرين تفكيرهم الصامت فيما يتوجب عليهم فعله لإنهاء هذا الوضع الحرج ، وكان أول المتكلمين هو (الملك) :

ـــ ما هى خطتك أيها السفاح ، أتظنك قادرًا على الخروج من هنا سالمًا وأنت فى وضعك هذا ؟

وسأله الشيخ (عبد الحميد) :

ـــ هل هناك من يشتت انتباهنا من أجل أن يقتحم القصر مثلاً ؟

شعرت الأميرة بسؤال فى حلقها فأخرجته :

ـــ كيف تخلصت من قيودك ؟! لابد أنك كنت مقيدًا أيها الشرير .

هذه المرة كانت الوحيدة الذى التفت فيها (سانتور) إلى محدثه وأخذ يقهقه ، وكانت أفضل فرصة ليمزق (علىّ) السوط ويرمى (الزين) بسيفه إلى صدر (سانتور) ، ولكن السيف مزق جزءاً فقط من ملابسه مصدرًا رنة معدنية قال بعدها (سانتور) وهو يتناول سيف (الزين) :

ـــ درع واقٍ مثبت إلى الصدر ، فكرة لم تخطر لأكثركم حذقًا أيها الفتى .

كان وضع (علىّ) شديد الصعوبة بعد أن امتلك (سانتور) سيفًا ، فسأل من مكانه :

ـــ معه سيف الآن يا (زين) ، ماذا ترانا فاعلين ؟

صاح به (الزين) :

ـــ لا أدرى يا (علىّ) فكر بشىء .

سألته الأميرة :

ـــ هل أفكر معكما ؟

سحبها الملك وضمها إلى صدره وهو يقول :

ـــ لا تخافى يا بنيتى ، ستمر الأمور بسلام .

سحبت نفسها منه وهى تقول :

ـــ أنا لست خائفة يا أبى ، ولكننى أريد أن ننتصر على هذا الشرير .

* * *

لم يكن الاتفاق بين (سانتور) وقائد جيوش الغرب سوى خطة شيطانية يحقق بها السفاح مآربه ، ففى الكهف ألقى على مسامع القائد ما أذهله :

ـــ سأذهب إلى ملك هـــذه البلاد أتملقه أو أدعى أى شىء يرفضه ، ثم يزج بى فى السجن ، سيحضر الشيخ (عبد الحميد) ، وقتهـــا يستدعينى الملك لأمثل أمامهما ، سأوفر لك بهذا الكثير من الوقت لتكون قد جلبت مددًا من بلادك ، سأحدث جلبة فى ديوان القصر وسيجتمع معظم الحراس فيه ، سيقوم رجالى باقتحام القصر وقتل الحراس وأسر الخدم والملك وابنته .. ريثما يصل الخبر إلى المدينة كلها سيقل عدد الجنود القائمين على حراستها ، وقتها يحين دورك .. عليك اقتحام المدينة فى وقت سريع جدًّا والاتجاه إلى القصر لمساعدتى .. سأعتمد عليك .

ــ أنت شيطان .

قالها القائد بانبهار ، فرد عليه (سانتور) متصنعًا التواضع :

ــ لا داعى للمجاملات الآن .

* * *

وقفت الأميرة تتطلع إلى (الزين) بإعجاب وهى تقول له :

ــ هل تعلم أننى تمنيت يومًا مشاركتك إحدى المغامرات ؟

ــ هل راق لك الأمر ؟

ــ جدًّا .. إننى سعيدة أن خُضت مغامرة تحتوى بعض الخطر .

ثم استطردت :

ــ وأن هذه المغامرة كانت معك أنت .

ــ أنا أيضًا سعيد أن حققتُ لك شيئًا تأملينه .

اقترب منهما الملك يقول :

ــ يمكنكما إكمال حديثكما فى البستان خارج القصر .

أمسك (الزين) بيد الأميرة وهى تقول له متجهين إلى خارج القصر :

ــ هل تعرف قصة من يُدعى « الشاطر حسن » الذى انتصر على « الغــولة » وكسب قلب أميرة البلاد ؟ لقد حدثتنى بها الوصيفة الكثير من المرات .

ابتسم (الزين) وهو يسألها :

ــ أكان حقًّا يدعى (حسن) ؟

* * *

ـــ ما لك منهكًا رثًّا يا قائد جيوش الغرب ؟

قالها إمبراطور بلاد الغرب وهـــو جالس على عرشه ومن خلفه وزيره ـ صديقه ـ فأجاب القائد :

ـــ انجدنى يا مولاى الإمبراطور .. لقد أسروا الكثير من الجنود وقتلوا بعضهم ، إننى بحاجة إلى مدد للسيطرة على الأمور .

قطب الوزير حاجبيه بينما صاح الإمبراطور الشاب بغضب :

ـــ كيف حدث هذا ؟ أى قائد جيوش أنت لتصل أمورك إلى هذا الحد ؟

قال الوزير :

ـــ بل وكيف نجوت أنت دون الباقين ، ألا ترى هذا غريبًا أيها القائد ؟

قالها بلهجة فهمها القائد وجزع منها ، سأله الإمبراطور :

ـــ ماذا تعنى يا وزير البلاد ؟

ـــ إننى أتحدث عن خيانة ما هنا يا جلالة الإمبراطور .

ردد الإمبراطور كلمة « خيانة » مرتين وهو يقطب جبينه مسلطًا نظراته على القائد الجزع الذى قال :

ـــ أى اتهام هذا يا مولاى ؟ إن ولائى لجلالتكم والبلاد أمر لاشك فيه أبدًا .

ـــ أخبرنى إذن بما فعلته كى تنقذ نفسك مخلفًا وراءك جنودك قتلى وأسرى .

شرع القائد يحكى خطته وكيفية تنفيذها وخروج جنود بلاد الشرق من تحت الأرض ، واستمر حتى وصل إلى نقطة ذهابه إلى (سانتور) فصاح الوزير جزعًا :

ـــ السـفاح ؟!!

وبعــد هذا لم يتمكن من تبرير موقفه أبدًا ، والندم يفتك بقلب الإمبراطور لما اتخذه بشأن القائد السابق .

* * *

بعد فترة لم يجد السفاح أى بادرة لاقتحام جيش الغرب للمدينة ، أو لاقتحام رجاله المنتشرين فى أرجائها قصر الملك ــ كما هو متفق ــ فى حال عدم حضور قائد جيوش الغرب ومدده ، فقرر أن يرتجل .. قال :

ــ أود مبارزة الشاب الفتىّ رجلاً لرجل .. ولو أنه انتصر فافعلوا ما يحلوا لكم بى .. ولو أننى انتصرت فأخرج من هنا آمنًا .

بادر (الزين) بالرد قائلاً :

ــ كلا أيها السفاح ، أنا أرفض مبارزتك .

اندهش الجميع خاصة الأميرة لردة الفعل غير المتوقعة هذه ، فقال (سانتور) ــ برغم دهشته بدوره ــ :

ــ أحيى فيك تقديرك لنفسك ومعرفتك بعجزك عن الانتصار علىّ .

ــ ليس الأمر هكذا ، ولكننى فقط لا أرغب فى منازلتك .

لم يتمالك الملك السيطرة على فضوله الشخصى فسأل (الزين) :

ــ لماذا يا (زين) ؟

ــ لأنه يا مولاى فى موقف الأضعف ، يمكننا فعل ما نشاء به دون الحاجة إلى منازلة سخيفة لا طائل من ورائها سوى إثبات قوة الأقوى .. لِمَ ترى أنه علينا الخضوع لرغبته يا مولاى ؟

كان (الزين) فى إجابته متجهًا بوجهه ناحية الملك .. علق (سانتور) قائلاً :

ــ ولكننى فى الموقف الأقوى ، لدىَّ سيفى بمهارتى وقوتى وأعلم أنكم مجتمعين لا تستطيعون هزيمتى .

تحركت الأميرة باتجاهه متمتمة بأشياء غير مفهومة مقطبة جبينها تحرك يديها ، ثم وقفت أمام (الزين) الذى اتجه بجسده ناحية (سانتور) وقد لمح فى نطاق الأميرة خنجرًا صغيرًا ، تظاهرت الأميرة بالتراجع والسقوط فلحقها (الزين) وبينما هو يفعل سحب الخنجر بسلاسة وعاونها على النهوض مرة أخرى ويده خلف ظهرها فانحنيت للأمام بسرعة وألقى (الزين) بخنجره ناحية (سانتور) وهو يصيح :

ــ الآن يا (علىّ) .

وبينما كان السفاح يتفادى الخنجر المصوب إلى رقبته قفز (علىّ) باتجاهه مسلطًا ذؤابة سيفه على الرقبة بعد أن ركل الآخر الممسك به السفاح ، ثم صاحت الأميرة وهى تصفق :

ــ انتصرنا ، لقد كان الخنجر مثبتًا إلى ظهر العرش .

قال الشيخ (عبد الحميد) بتنهد :

ــ انتصرنا .

دخل كبير الجند فجأة ليفاجأ بالوضع الذى عليه الجميع ، فقال باندهاش :

ــ لقد ألقينا القبض على عدد من الرجال ذوى الملابس الخضراء يا مولاى بالخارج .. كانوا ينوون ...

قطع حديثه قليلاً ، ثم استطرد :

ــ ماذا يحدث هنا يا مولاى ؟

ــ لا بأس يا كبير الجند ، لا شأن لك بأى تقصير .. ماذا عمن ألقيت القبض عليهم ؟

ــ لقد كانوا ينوون اقتحــام القصر ، لكن لمحهم بعض الجنود عند عودهم أثناء تبديل الدورية .

وكانت الأسئلة تتردد فى الأذهان ..

كان ما يلح على (علىّ التوحيدى) هو : كيف عرف (الزين) بأمر قتاله مع ذوى الملابس الخضراء منذ بضعة أسابيع ؟!

وكان يلح على (الزين) : كيف أن (البقدونسى) عرف بمكان وجودهم أسرى عند السفاح ؟!

* * *

تمــــــت

رقم الإيداع : ١٨٧٤
الترقيم الدولى : ٦ ــ ١٥٢ ــ ٣٧٨ ــ ٩٧٧